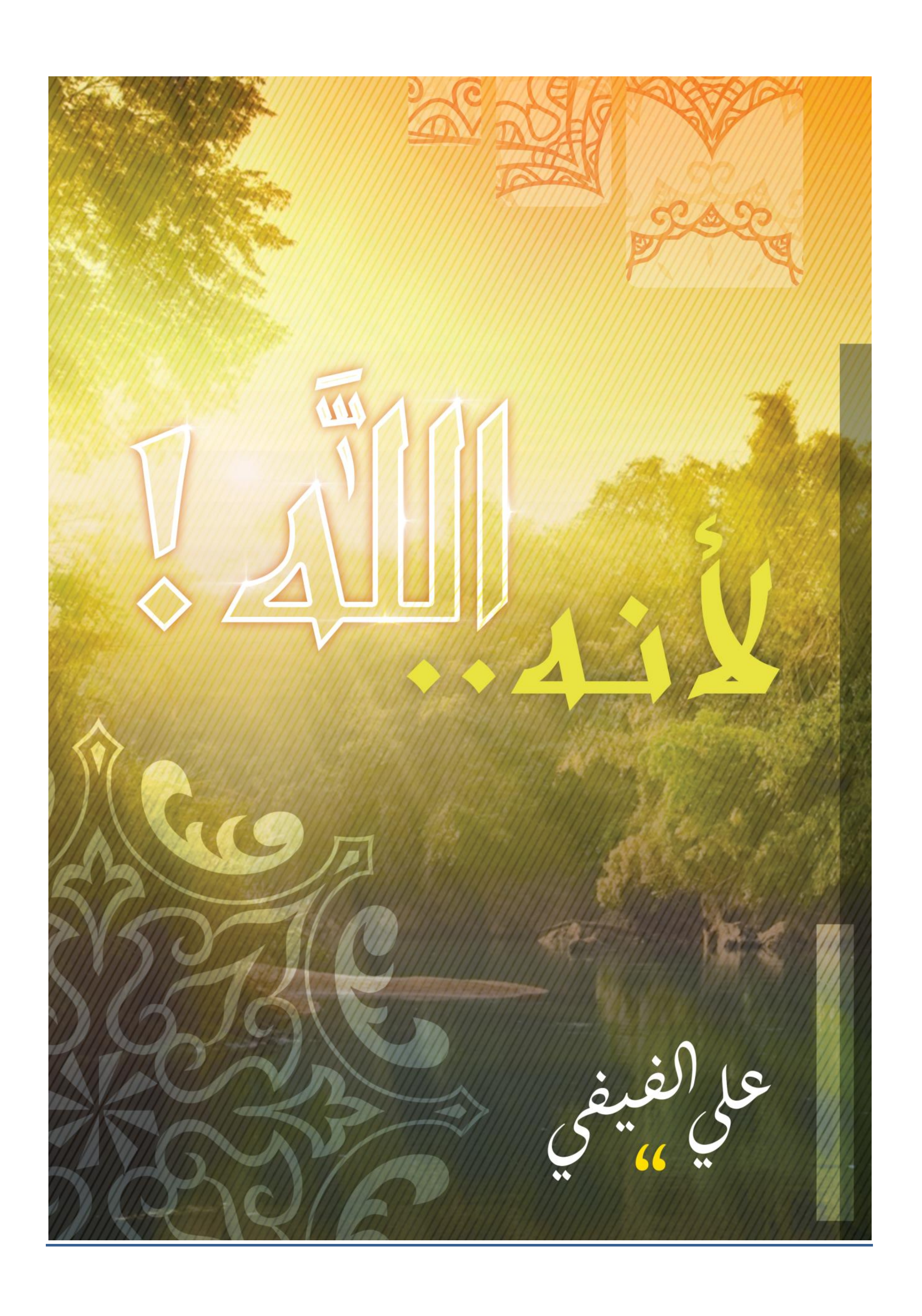

لأنه.. الله!
علي الفيفي

-إذا أعطاك أدهشك!

-أيها القلب اطمئن!

-قلبك المهشّم.. كيف تهشّم؟

-الذي يراك حين تقوم!

-لا مرض بعد اليوم!

-في ظلال الصمديّة!

-خفيّ الألطاف!

إذا أعطاك أدهشك!

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وصحبه ومن والاه .. وبعد

فما زالت أسماء الله الحسنى ترينا شيئا من جماله وجلاله وعظمته سبحانه .. لنخشع له ، ونحبه ، ونرجوه ، ونعبده..

ومن أسمائه ذات الجلال والجمال والكبرياء والعظمة "الشكور" .. فهو يشكر عبده على ما قدّم من عمل صالح..

وجملة " عمل صالح" لا حدود لها .. تكاد لعظمتها واتساعها تملأ ما بين السماوات والأرض!

فهو سبحانه يأمرك بهذا العمل الصالح الذي فيه صلاح دنياك وآخرتك فإذا عملته .. يكون سبحانه هو المستحق لشكرك لدلالتك عليه .. وتيسيره لك .. وإصلاح حالك به .. أليس كذلك ؟ .. ولكنه بكرمه هو من يشكرك عليه!

فهل في الكرم مثل هذا ؟ وهل في الجود قريب من هذا ؟

كيف يشكرك ؟

هذا سؤال تفنى الأوراق دون الإجابة عنه..

فكما أن ذاته سبحانه لا تدركها الأبصار .. فإن أسماءه وصفاته لا تدرك حقيقتها العقول..

ومع ذلك فلنا من باب التفكر والتدبر أن نسيح مع هذا الاسم العظيم نستجلي ظلاله في حياتنا..

فمن شكره سبحانه:

يغفر الذنوب ويستر العيوب..

يوفي الحسنات ويعظم الأجور..

يعطي الصحة والعافية .. والأبناء .. والمال .. والحياة الهانئة..

يرزقك الذكر الحسن والسمعة الطيبة..

يستجيب دعواتك .. ويشعرك بقربه .. ويؤنسك به..

يشفيك من أسقام مات غيرك بمثلها..

ويرفع عنك بلايا تضعضعت نفوس غيرك بأقل منها..

يهديك إلى الحق .. وقد ضل الكثير عنه..

ويثبتك على الهداية .. وقد زاغت عنها أفئدة من هم أذكى منك وأعلم منك وأقدم في الإسلام منك !

اقرأ وتخيّل:

"مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبّة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة " هل انتهت ؟ لا .. " والله يضاعف لمن يشاء " .. سبحانك..

حبّة في العمل تتحوّل بفضله وبكرمه وبشكره لك إلى سبعمئة حبّة في الأجر والثواب..

كيف : واحد يساوي سبعمئة!

تعمل صالحاً يستحق أجرا مثله .. فيأجرك الله مثله سبعمئة مرّة .. ويضاعف لمن يشاء!

مع كرم الله تتغيّر المسائل الحسابية !! لأنّه كرم لا يخضع للمعادلات الحسابية .. بل للفضل الإلهي..
سبحانه .. إذا أعطاك أدهشك .. وإذا أكرمك أذهلك!
هؤلاء أنبياؤه عملوا الصالحات وجاهدوا لتبليغ كلماته ، فشكرهم بأن أعلى ذكرهم وجعلهم قدوات يُقتدى بهم وخلّد قصصهم وعبرهم في أعظم كتبه ، وحمى أعراضهم فلم يبح لأحد أن يستنقص من قدرهم أو أن يسيء الظن بهم .. وغير ذلك من شكره لهم سبحانه وتعالى..

ولذكرهم في كتابه مزية أستشعرها دائما!

عبد من العبيد .. خلقه الله بقدرته .. لم يكن شيئا مذكورا .. ثم يقول عنه:

"واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا"

"واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصا"

"واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد"

"واذكر في الكتاب إدريس"...

"إنا وجدناه صابرا" .. توقف قليلا .. أكمل الآن :" نعم العبد " الملك العظيم يقول عن عبد من عبيده : نعم العبد!!

يا الله .. ما أعظم كرمه إذا أراد أن يكرم..

وإذا نظرت في شكره سبحانه لنبيّنا محمد عليه الصلاة والسلام وكيف أنه قسم له رحمته "أهم يقسمون رحمة ربك" .. واختصه برسالته " الله أعلم حيث يجعل رسالته " وكان معه في جميع أدوار حياته " والله يعصمك من الناس" وجمله بأجمل الأخلاق " وإنك لعلى خلق عظيم.. "

بل انظر كيف أنّه قرن اسمه باسمه في الأذان وفي الشهادة .. قال حسّان:

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

وشقّ له من اسمه ليجلّه... فذو العرش محمود وهذا محمّد

وهؤلاء الصحابة الذين بذلوا أرواحهم وأعمارهم وأموالهم نصرة للدين شكرهم بأن جعل الكلام فيهم من علامات النفاق .. ورضي عنهم .. وضاعف أجر أعمالهم وعدّلهم جميعا بلا استثناء .. وجعلهم خير القرون .. وقال فيهم : " لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة" .. وقال : " وكلا وعد الله الحسنى" .. والأحاديث في فضل عمومهم وأعيانهم أشهر وأظهر من أن تذكر .. وكل هذا شيء من شكر الله لما قاموا به من تصديق وجهاد وبذل..

فكما يشكر الكريم من عمل معروفا .. فكذلك سبحانه وله المثل الأعلى يشكر شكرا يليق بكرمه وبعزّته وعظمته .. شكرا لا كالشكر..

فهو شكور لأن الشكر الواحد منه أعظم من كل شكر..

وهو شكور لأن العمل الواحد منك يشكره المرة تلو الأخرى..

وهو الشكور لأنّه يشكر العمل الكبير والعمل الصغير بشرط أن يكون خالصا صوابا .. فهو لا يشكر الأعمال العظيمة فقط بل حتى مثقال الذرة منك يشكره وينمّيه " فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره" فقد أدخل امرأة الجنّة بشق تمرة ، وبغيّا بأن سقت كلبا .. وثالثا كل حياته ذنوب بأن

خاف منه .. ورابعاً ليس له إلا حسنة واحدة لأنّه تصدق بها على صاحبه .. وهكذا .. وخامساً قتل مئة نفس ! لأنّه هاجر إليه..

ومن شُكره سبحانه أن يعجّل بثواب المتصدق .. فيرزقه بركة ويغدق عليه من نعمه..

يخبرنا عليه الصلاة والسلام عن أن الله يقبل صدقة عبده بيمينه ويربيها كما يربّي أحدكم فلوّه .. وهذا من شكره وفرحه سبحانه بطاعة عبده..

يخبرني أحد سكّان المنطقة الشرقية عندما كنّا واقفين عند متجر شهير وكان هذا الكلام قبل عشر سنوات تقريباً .. يخبرني عن قصة هذا المتجر..

يقول : كان صاحبه موظّفا عاديا يجمع من رواتبه وتجمع زوجته من رواتبها كي يبنوا بيت العمر كما يقال ، ولمّا شارف المبلغ أن يجتمع صلّى الزوج في مسجد وسمع كلمة من أحد المشايخ حث فيها على بناء المساجد وأنّه " من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتا في الجنّة" وقعت تلك الكلمة من الرجل موقعها .. فانصرف من ليلته إلى زوجته وأخبرها بنيّته أن يجعل كامل المبلغ في مسجد يبنيه ، فإذا بزوجته تدفع له مالها عن طيب خاطر وتطلبه أن تشاركه في مشروع المسجد!

لك أن تتخيّل كيف تغيّر خطّتك التي بذلت لأجلها عرق سنين في ليلة ! ويكون ذلك التغيير لله عز وجل ونابعا من قلب حيّ يريد الله والدار الآخرة..

يقول صاحبي .. بعد بناء المسجد أخذوا في الجمع من جديد ولعلّ فكرة التجارة قد طرأت على عقل الزوج فافتتح متجراً صغيراً .. فإذا بالزبائن يأتون من كل مكان وإذا بالأموال تمطر عليه فوسّع الرجل متجره ثم بعد مدّة فتح له فرعا ثم الثاني والثالث .. يقول صاحبي : والآن له في المنطقة الشرقية فقط ثلاثة عشر فرعاً .. وهذا الكلام قبل عشر سنوات .. سبحان الشكور .. سبحان من لا يخسر أبدا من يتاجر معه..

لقيت بالأمس رجلا قال لي إن اسمه فلان بن فلان الرحيلي .. فقلت له ممازحاً : هل أنت صاحب محطّات الرحيلي الشهيرة في جدة ؟

فقال لي : لا ، ولكنّه قريبي!

ثم قال سأخبرك بقصّة الرحيلي هذا ، كان في بداية حياته كثير الصدقة على الفقراء ، وكان يعول الأيتام .. ثم فتح الله عليه فكانت له هذه المحطّة وغيرها من الأعمال التجاريّة الناجحة..

هذا ما يعمله الشكور الحميد سبحانه..

يقول عليه الصلاة والسلام : " ما نقص مال من صدقة" .. يجب علينا أن نؤمن بهذا الكلام إيماناً عميقاً..

وهذا ربّنا يقول في الحديث القدسي : " يا عبدي أنفق أنفق عليك.. "

فإذا وضعت ريالا في كفّ فقير فثق أن الله سيضع لك من فضله ما يوازي بل ويفوق ذلك الريال صحّة ورضا وعطاء وفضلا..

طالب جامعي فقير سمع وهو يسير لصلاة الجمعة رجلا يهتف بقرب صندوق التبرعات ويحث الناس قائلا : عبدي أَنفقْ أُنفق عليك .. فتش جيبه فإذا بثروته كلها خمسة ريالات .. فأخرجها وأودعها صندوق التبرعات .. كان في قلبه صوت اليقين يقول : لقد أنفقت يا ربي .. فأنفق..

في المساء زار أخاه فأخبره هذا الأخ (دون أن يعلم بحاله) أن جمعية مالية قد حلت في حسابه وهو لا يحتاجها كلها .. وبعد ممانعة استقطع منها ألفين وأعطاها صاحبنا !! لقد أنفق الله عليه..

قرأت قديما في إحدى المجلات قصة كتبتها صاحبتها : أن سائلا طرق بابهم في صباح يوم فأخرجت من محفظتها آخر مئة ريال ودسّتها في يد ذلك السائل..

وكانت روحها تهمس : يا الله العشرة أضعاف .. العشرة أضعاف..

دخلت المطبخ وصنعت فطورا لها ولزوجها .. استيقظ الزوج وجلس على المائدة وبينما هو يتناول طعام الإفطار إذ به يتذكر ويقول : هناك على تلك الطاولة ظرف لكِ استلمته البارحة من البريد..

قامت الزوجة لترى ما في الظرف .. فإذا به شيك بنكي أجرة مقالة كتبتها في إحدى الصحف ومن العجيب أنّها كانت : ألف ريال عدّا ونقدا!!!

ومن أوضح صور الشكر الرباني هو ما اقترن ببر الوالدين من تيسير في العيش وتوفيق في جميع الشؤون .. حتى كأن نجاح التجارة حصر على البررة .. يمكنك أن تستعرض من تعرفهم من الناجحين .. ستجد بر الوالدين جامعا مشتركا بينهم .. ولا بد!

يقول سبحانه " وافعلوا الخير.. "

ومهما كان هذا الخير صغيرا .. فإن الشكور يشكره..

عندما تحرص أن تطفئ نور سيارتك عند إشارة المرور حتى لا تزعج من هم في الشارع المقابل .. قد لا يعلمون بمقصدك .. بل حتى لا ينتبهون لفعلك .. لكن احذر أن تظن أن الشكور لن يكافئك .. كيف ؟ لا يهم .. من المحتمل أن مرضا كان سيخطف بصرك وقاك الله منه شكرا لك على صنيعك النبيل..

حرصك على فتح الباب ليلا بلطف حتى لا تزعج النائمين..

مسكك لباب المسجد منتظرا لكبير في السن أن يدخل..

تفاديك أن تدهس قطة عابرة..

ابتسامتك لطفل..

ترتيبك لغرفة في منزلكم..

دعاؤك لمسلم مات .. بسبب أنك متيقن أن لا قريب له يدعو له..

إغلاق صنبور ماء كان غير محكم الإغلاق..

رفعك غصنا ملقى على الطريق..

كل هذا من الخير .. " وافعلوا الخير" وسبحان من يشكرك على فعل الخير وإن كان مثقال ذرة ..

ومن أجل وأحسن الخير أن تمسك المصحف لتلاوة وردك ، ثم تقع عينك ، بل يقع قلبك على خير يحثك الله على فعله فتضمر في نفسك ألا ينقضي يومك ذلك إلا وقد أتيت منه ما استطعت .. إنك بذلك تفعل أعظم ما يمكنك فعله .. إنك تفعل الشيء الذي لم ينزل الله القرآن إلا لتفعله!

أما إن سألت عن أعظم خير يمكنك فعله .. فهو أن تسلم وجهك لله ! أن تحيا مسلما .. وتعبد الله مسلما .. وتعامل الناس مسلما .. وتنظر وتتكلم وتشعر مسلما .. ثم تموت مسلما..

سئل الإمام أحمد : من مات على الإسلام والسنة .. مات على خير ؟ فقال لسائله : اسكت ، بل مات على الخير كله!

يقول سبحانه : " وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله" .. كل خير وأي خير تقدّمه لنفسك .. ستجد أن الشكور الحفيظ حفظه ونمّاه فتأتي يوم القيامة تجده عنده موفوراً قد عظم وبات أكبر من يوم أن فعلته..

وفي الأثر الضعيف المتن الحسن المعنى : " صنائع المعروف تقي مصارع السوء " وهذا من شكره .. فلم يضيّع صنيعك الحسن بل جعله وقاء لك عن أن تموت موتة سيئة!

قال تعالى : " فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره"

ومع أن الذرة لا تكاد ترى إلا أنّك إن فعلت خيرا بقدرها فإنّك ستراه يوم القيامة ينتظرك .. ليبهجك به سبحانه ويربط على قلبك في يوم يجعل الولدان شيبا..

لذلك فشعور أنّه سبحانه الشكور وأنّ الخير كلّه منه يجعل العبد على ثقة بربّه محسنا الظن به سبحانه..

قيل لأعرابي : إنّك تموت ! فقال : إلى أين يذهب بي ؟ قيل : إلى الله . فقال : كيف أكره أن أقدم على الذي لم أر الخير إلا منه ؟

شعور عظيم ذلك الذي يملأ فؤاد هذا الأعرابي .. يقرّه عليه القرآن الكريم حين يقول الحق سبحانه : " وما بكم من نعمة فمن الله"

كل شيء .. نعم كل شيء يحوطك من الصحة والمال والراحة والتيسير والرضا هو منه .. " وكان فضل الله عليك عظيما.. "

تعبده ستين أو سبعين سنة .. أكثرها دون التكليف أو نوم أو في عمل المباحات .. ومع ذلك يكافئك عنها جنة عرضها السماوات والأرض .. تسكنها الأبد كله!

فإن كان سبحانه يعطي لا على شيء .. فكيف إذا كان هناك شيء ؟ كيف إذا فرقت بينك وبين بقيّة عباده الذين يرزقهم ويتحبب إليهم بالنعم بأن عملت صالحاً يرضاه .. عند ذلك لا يجوز لك أن تعتقد أن لن يكرمك الكريم ويشكرك الشكور ويحمدك الحميد سبحانه..

ثلاثة يلجئهم المطر إلى غار فيصبحون وقد أطبقت صخرة عظيمة بابه فلا يستطيعون الخروج .. فيبتهلون ويتوسلون إلى الله بصالح أعمالهم .. فيكون شكره لهم سبحانه بأن يجعل مكافأة العمل أو جزءا من مكافأة العمل جزءا من تفريج ذلك الكرب وزحزحة تلك الصخرة العظيمة .. وما إن انتهى ثالثهم حتى انفرجت الصخرة وخرجوا يمشون في الشمس!

يبذل عيسى عليه السلام عمره له سبحانه .. منذ أن نطق كلمته الأولى في المهد وهو عبد لله .. فيتآمر ضدّه شرار بني إسرائيل ليقتلوه .. فيكون شكره له سبحانه من أغرب الشكر .. رفعه إليه ! هكذا انتشله من بؤرة الهم والمكائد والقلق .. وجعله في سماواته يعيش مع ملائكته وخيار خلقه ..

إنك مع الله في ربح دائم..

والله هو القادر على انتشالك مما أنت فيه .. أعلم جيدا أن لديك من الهموم والكروب ما لا يتناسب مع النجاة منها إلا لفظة انتشال .. اعمل الخير .. لينتشلك الله به .. كما كان تسبيح يونس سبب انتشاله من بطن الحوت..

إنّك تتاجر مع ذي الكرم المتناهي وذي الشكر المتناهي وذي الفضل المتناهي..

ليس هناك احتماليّة خسارة في سوق .. الله من يسيّر أمرها .. فكن معه ثم ارقب أفضاله وشكره .. لن يتركك .. ثق بذلك .. لن تسجد لله سجده إلا ويشكرك عليها شكرا يليق به وبكرمه .. فقط كن معه..

هذا وصلى الله وسلم على سيدنا محمد ..

أيها القلب اطمئن!

هو الحفيظ .. وحفيظ فعيل من حافظ فاعل ، ومعنى الحفظ في الحفيظ أبلغ منه في الحافظ لذلك كان " الحفيظ " اسم من أسمائه الحسنى ، والحفظ صفة من صفاته العُلى : إذن فمنتهى الحفظ عنده ، وغاية الرعاية لديه ، وأقصى الطمأنينة ستكون وأنت بمعيّته ..

يحفظ عبده .. لذلك نقول دائماً : اللهم احفظني من بين يدي .. ومن خلفي .. وعن يميني .. وعن شمالي .. ومن فوقي .. وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي ..

إنّك تستحفظ الله جهاتك الستّ ، إنّك تطلب منه هالة حفظ تحوطك من جميع الجهات .. ولا يقدر على ذلك إلا ملك الملوك سبحانه ..

يحفظ سمعك وبصرك .. لذلك ندعوه في الصباح والمساء أن : اللهمّ عافني في سمعي .. اللهم عافني في بصري ..

ستفقد الجهاز الذي تستطيع به فهم هذا العالم إن فقدت سمعك وبصرك ..

ستعيش في عزلة سوداء ..

ستخنقك الدنيا بصمتها ..

لم أكن أعلم أن الإنسان يتنفّس بسمعه حتى حدثت لي هذه القصة :

قبل عشرين سنة وأنا في بيتنا في جبل فيفاء .. ذلك الجبل الجميل المليء بأصوات العصافير .. والرياح .. والمطر ..

أيقظتني أمّي لصلاة العصر فتصنّعت عدم سماعها ! كررت محاولات إيقاظي ، وكررت تمثيل عدم السماع .. كنت صبيّاً صغيراً وكان نومي ثقيلاً ! فدعت أمي عليّ أن يبتليني الله في سمعي إن كنت (أتصانجها) ! سمعت دعاءها ذلك ، ثم انطفأت الأصوات فجأة ..

لم أسمع شيئاً بعد ذلك !

اختفت العصافير .. وتلاشت الرياح .. وانطفأ المطر !

قمت من ذلك النوم المشؤوم ، توضّأت وصليت وأنا أنظر للدنيا من حولي وكأنّي أتعرّف إليها للتوّ ..

أرى إخوتي يتحدّثون فلا أسمع مما يقولون شيئاً ..

طلاب الفصل يضحكون من إجاباتي التي تكون بشيء لم يسأل عنه المعلّم !

اختنقت حقيقة ..

قصفت الرعود .. فتمنيت أن أسمع الرعد .. ذلك الصوت المخيف .. أنت بحاجة إلى أن تسمعه لتتأكد من أنّك ما زلت حيّاً ..

غبت بقية الأسبوع عن المدرسة ..

صارت أمّي تطيل في صلاتها السجود داعية لي ..

صرت أبكي بصمت ..

علمت أن الله هو الذي حرمني من هذه النعمة وهو وحده القادر على إعادتها .. وبعد أسبوع من الاختناق .. تنفسْتُ ..

في ليلة من الليالي وأنا في كربي ورأسي على وسادتي إذ بالدنيا تصرخ في أذني ! ما أجمل صراخ الدنيا وخاصّة صراخ القرى ! .. صوت عواء الذئاب ونباح الكلاب وثغاء الخراف وحفيف الأشجار ودبيب الحركة في البيت .. فقمت من على فراشي صارخاً : لقد عاد سمعي يا أمي ..

لقد عاد صوت العصافير .. وحفيف الرياح .. ورشاش المطر ..

الحفيظ هو من يحفظ سمعك .. الذي تسمع به الحرام .. ولو شاء لأذهبه في لحظة ..

ويحفظ بصرك الذي تنظر به للحرام .. ولو شاء لأذهبه في لحظة ..

يحفظ دينك .. لذلك تناجيه في السجود أن : يا مقلّب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك ..

لو لم يثبت قلبك على دينه لتناوشتك الشبهات ، وتخطّفتك الأهواء .. علماء أفنوا أعمارهم بين الكتب والمحابر لم يرد الله أن يحفظ عقائدهم : فكفروا به سبحانه ، وبعضهم صار مبتدعاً في الدين .. وأنت بعلمك القليل ما زلت تسجد له ؟ لقد حفظ الحفيظ دينك ..

عبد الله القصيمي يؤلّف كتاباً يدافع فيه عن دين الله اسمه " الصراع بين الإسلام والوثنيّة " يقال إنّه دفع به مهر الجنّة .. وأثني عليه على منبر الحرم .. ثم بعد ذلك بسنوات يؤلف كتاباً يهاجم فيه دين الله اسمه " هذي هي الأغلال " .. يقول : إن دين الله آصار وأغلال وقيود **!** نعوذ بالله من الخذلان ..

إن الحفيظ هو من يحفظ دينك .. لا مجموعة المعلومات التي في رأسك **!** لا تغتر بعلمك ، ولا بحفظك لكتاب الله ، ولا باستظهارك لشيء من سنّة النبي صلى الله عليه وسلم .. والله إن لم يحفظ الله دينك ستزيغ ..

هذا بلعام بن باعوراء يؤتيه الله اسمه الأعظم .. ليدعوه في أي وقت فيستجيب له .. فلا يحول هذا الاسم العظيم بينه وبين الزيغ فيهلك في الهالكين ..

يحفظ حياتك .. لذلك نستودعه سبحانه أحبّتنا عندما نفارقهم ونقول : أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه **!!** يستحيل أن تضيع الودائع التي أسبغ عليها الله حفظه وأحاطها برعايته ..

كلّ حادث ينجو منه صاحبه وراءه حفيظ أنجاه منه .. نتذكر فائدة مانع الانزلاق ، وفائدة كابح السرعة ، وفائدة البالون الواقي ، وفائدة حزام الأمان .. وننسى حفظ الحفيظ سبحانه ..

إذا صفعت الأمواج بعتوّها السفينة ، وبلغت القلوب الحناجر .. من الذي يحفظ السفينة من أن يبتلعها المحيط ؟

رأيت تسجيلا لسفينة تلعب بها الأمواج .. كان منظر من في السفينة وهم يتزحلقون بعنف من أقصاها إلى أقصاها مؤثرا .. لا يملكون شيئا .. حتى التفكير لا يستطيعونه .. الشيء الوحيد الممكن بالنسبة لهم هو محاولة التشبّث بأي شيء ..

ثم لما انتقلت الكاميرات للخارج رأيت السفينة قشة صغيرة في وسط الأمواج العاتية ..

يعلن كابتن الطائرة عن وجود عطل في الطائرة فيتحوّل أولئك الذين كان كل واحد منهم في فلك يسبح إلى مخبتين .. الكل يلتجئ إلى الله ويعلن توبته ..

نسوا آمالهم وأحلامهم وهمومهم وغمومهم وصار الموت هو كل ما يمكن لعقولهم أن تتصوّره !!

من هو الذي أصلح العطل بقدرته كي تنزل الطائرة بسلام ويخرج منها أولئك الذين حوّلهم الخوف إلى أشباح ؟

ندعوه في البحر أن ينجي سفينتنا * فإن وصلنا إلى الشاطي عصيناه

ونركب الجوّ في أمن وفي دعـــــة * فمـــــا سقطنا لأن الحافظ الله

يقول تعالى : " له معقّبات من بين يديه ومن خلقه يحفظونه من أمر الله"

لأجلك أنت يأمر الحفيظ سبحانه أربعة ملائكة يحيطون بك حتى يحفظوك بأمره من كل ما لم يقدّره عليك ..

كيف لا يكون حفيظا وقد أوكل بك هذا العدد من ملائكته الكرام حتى يصدّوا عنك أي طلقة لم يشأ سبحانه أن تخترق جسدك وأي صخرة لم يرد سبحانه أن تنهي حياتك بل وأي بعوضة لم يشأ سبحانه أن تؤذي بشرتك !

أتعلم أنّه يحفظك في كل لحظة ؟

بل في كل لحظة يحفظك مئات المرات !!

كيف ؟

في هذه اللحظة حفظ قلبك من التوقّف ، وشرايينك من الانسداد ، وعقلك من الجنون ، وكليتك من الفشل ، وأعصابك من التلف ، ورأسك من الصداع ، ومعدتك من القرحة ، وأمعاءك من القولون ، وأعضاءك من الشلل ، وعينيك من العمى ، وسمعك من الصمم ، ولسانك من البكم .. كل هذا وأكثر حفظه في هذه اللحظة .. ثم يستمر هذا الحفظ في اللحظة التي تليها .. وهكذا

فكم " الحمد لله " ينبغي أن نقولها في اللحظة الواحدة ؟

إذا أوقفت سيّارتك في مكان مظلم وخشيت عليها أيدي السرّاق فاستحفظها الحفيظ .. فلن يضيّع سبحانه ما استحفظته عليه ..

إذا خرجت من بيتك في وسط الليل وخشيت على أطفالك فقل : أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه .. والله ستعود وهم كما تركتهم .. لأنّه الحفيظ !

إذا ألجأتك الظروف أن تترك شيئا ثميناً في مكان عام أو مكان غير آمن فانزح بقلبك إليه وقل : اللهم احفظها .. وثق أنّ عين الله ستكلؤها إلى أن تعود ..

بيده كل شيء .. فلا تخف إن كان هو الذي سيحفظك ..

أربعة من الأصدقاء ذهبوا إلى مكان يبعد عن تبوك ستين كيلاً اسمه " نعمة ريط" ثم هبطوا الساعة التاسعة صباحاً في ما يُسمّى بالشق ! والشق هذا شرخ عظيم في قشرة الأرض ، الهبوط إليه مغامرة ، بل مجازفة بالحياة ..

فتوّتهم وحبّهم للمغامرة جعلهم ينزلون .. وصلوا إلى القاع في نصف ساعة تقريباً ، ثم مكثوا إلى قريب من المغرب في محاولة الصعود إلى السطح ! تعلّقوا بالصخور .. تزحلقت بهم الانحناءات الملساء ، تهشّمت الطبقات الصخريّة تحت أقدامهم .. عبروا من أماكن ضيّقة لا تتسع لأصابع رجل واحدة !!

تعبوا .. تشققت أرجلهم ، أنهكوا تماماً ، بلغ بهم العطش مبلغاً عظيماً ،، باختصار : رأوا الموت ..

كانت قلوبهم معلّقة بالله .. كانوا متيقنين ألا حافظ إلا الله .. يقول أحدهم (وبشهادة البقيّة) إنّه دعا الله بإلحاح وقد بلغ به العطش حدّ تمنّي الموت .. فإذا به ، وفي مكان لا يمكن أن يكون قد وطئته قدم إنسان في القريب على الأقل يرى علبة ماء صحّة ! نظيفة ، فلم يفرح بالماء الذي تقاسمه مع رفاقه ، بل فرح بالله الذي كان معه في تلك اللحظة .. علم أن الله الذي أوجد الماء في تلك اللحظة سينقذهم من تلك الرحلة المميتة ..

وقبيل المغرب وصلوا للسطح وأوجههم سوداء ، وثيابهم مشققة ، والدماء تثعب من أرجلهم .. وإيمانهم بالله بحجم ذلك تلك الجبال التي أحاطت بهم !

سهرت أعين ونامت عيون   في شؤون تكون أو لا تكون

إن ربا كفاك ما كان بالأمس   سيكفيك في غد ما يكـــون

ولاسم الحفيظ مع كل المخلوقات قصّة ..

فهو يحفظ الحرباء باستطاعتها أن تتلوّن ..

والحصان بقدرته على الرفس ..

والجاموس بقرن حاد يبقر به بطن خصمه ..

ويحفظ بعض مخلوقاته بالسرعة كالأرنب والغزالة وبعض الأسماك ..

وبعضها يحفظها بقدرتها على القفز كالقرد والنسناس ..

وبعضها يجعل سلاحها الذي يحفظها به صعقة كهربائية تصيب من يلمسها كأنواع متعددة من كائنات البحر !

وبعض الكائنات حفظها بسموم تكمن في أجسادها كالثعابين والعقارب ..

هذا بعض حفظه .. وما لا تعلمه البشرية من حفظه سبحانه أعظم وأكثر وأكبر !

ومن صور حفظ الله أنّه سبحانه يدافع عن المؤمنين : " إن الله يدافع عن الذين آمنوا" ..

تأمّل : إنّه لا يدفع عنهم الشر .. بل يدافعه عنهم ! وفي هذا إلماحة إلى ضراوة ما سيلاقونه وتعدد أشكاله وتنوّع صوره .. ولكن الله أعلم بما يوعي أعداؤه .. فيدافعهم ويصدّهم عن أحبابه ..

وفي الحديث القدسي : " من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب " ! تخيّل : حرباً بين عدوّ للدعوة .. وللحق .. وللدين .. وبين الله !

من المنتصر ؟ من المهزوم ؟ بل من المخذول ؟ ...

إنّه بعباده المؤمنين حفيظ .. يحفظهم حفظاً خاصّاً .. معه الحب .. والرعاية .. والقدرة .. والرحمة ..

يتجمّع مشركو قريش حول غار فيه رجلان : محمد صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق رضي الله عنه .. والإغراءات المالية تدفعهم لقتلهم ، معها الأحقاد الدفينة ، والرغبة في حوزة وسام الظفر بأهم شخصية في تلك المدّة ..

فيتسلل الخوف إلى فؤاد أبي بكر .. فينظر إليه صاحبه العظيم ويقول : ما ظنّك باثنين .. الله ثالثهما ؟ هنا تتشتت المخاوف .. تزول الرعشة .. يذوب التوجّس

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلّهنّ أمانُ

ها هم فتية الكهف يلتجئون إليه ويسألونه الهداية فيلجئهم إلى كهف بلا باب .. مفتوح للبشر والهوام والسباع .. ولكنّه يريد حفظهم فيلقي عليهم أحد جنوده .. إنّه جندي الرعب !! فلا يقترب من الكهف أحد إلا وانتزع الرعب رغبته في التقدّم فتراه يُهرع خائفا : " لو اطّلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا" ..

أنا وأنت إذا أردنا أن نلقي شيئا ألقينا قلما .. أو كتابا .. أو سيفا .. أو صخرة .. أما الله فيلقي أشياء أهم وأغرب وأكبر..

يقول سبحانه :" سألقي في قلوب الذي كفروا الرعب " ..

لأجل عباده وأوليائه يلقي بالرعب في قلوب الذين كفروا فتنتفض أطرافهم فرقا من أولياء الله ..

إذن على ماذا تخشى إذا استحفظته الله ..

ويحفظك بالملائكة .. فمن قرأ آية الكرسي قبل أن ينام أوكل الله به ملكا يقوم على رأسه يحفظه مما لم يقدّره الله عليه ..

تخشى من ماذا إذا كان الله معك ؟

يجعلك هذا الاسم ترغب في أن ترفع صدرك إلى الأعلى ثقة بالحي الذي لا يموت .. تمشي في الظلام .. تجوز وديان السباع .. تخوض مستنقعات التماسيح .. فالحفيظ يحيطك بهالة حفظ تجعل كل هذه الأشياء لعب أطفال تافهة ..

سعيد بن جبير يمسك به جنديان من جند الحجاج .. وبينما هم في الطريق إذ تنزل الأمطار وتلجئهم إلى صومعة راهب .. فيرفض سعيد أن يدخلها رفضا قاطعا .. فيتركانه في الأسفل ويصعدان .. فإذا بأسد يقترب من سعيد فيصرخون به من الأعلى أن اهرب .. فلا يحرّك سعيد ساكنا بل يظل في عالم من الذكر دافئ .. فيقترب الأسد أكثر .. ثم يصل إلى سعيد وكأنّه يهمس له همسا ثم ينصرف .. والجنود ينظرون بخوف والراهب ينظر بعين أخرى ويقول : هذا وليّ من أولياء الله ..

خذوا كل أموالكم واتركوا فؤادي حرا طليقا غريبـــا

فإني أعظمكم ثـــــــــروة وإن خلتموني وحيدا سليبا

من الذي جعل الأسد يتوقف في اللحظة الأخيرة .. إنّه الحفيظ ..

أحدهم يمرّ من على سكّة الحديد مشياً .. والمشكلة أن القطار كان بكل قوّته قادما ، ولكنّ الرجل قدّر أنّه سيكون في الجهة الأخرى في الوقت المناسب ..

هذا هو تقديره .. ولكن لله تقديرا آخراً ..

فجأة تعلق رجله بين حديد السكّة .. يحاول أن ينزعها فلا يستطيع والقطار مقبل بسرعة جبّارة .. وصوته يملأ ذلك المكان برعب الموت .. والرجل يحاول بهلع .. يكاد أن يموت قبل أن يصله الموت ! ولمّا تكون المسافة بينه وبين القطار أمتارا يأذن الله لحديد السكّة أن يفسح لرجله المجال فتخرج وينتقل إلى الجهة الأخرى في ومضة كان جزء منها سينهي حياته نهاية مأساوية ..

يريد الله أن يقول لي ولك ولكل من رأى ذلك المشهد إنّه وحده الحفيظ .. فلا تركن لقوّتك ولا لتقديراتك ..

ثق بضعفك .. ثق بهزال رأيك .. ثق بفقرك .. ثم اجعل قلبك معلّقا بالله .. وردد :

أنا الفقير إلى ربّ البريّات أنا المسيكين في مجموع حالاتي

نبيّ الله لوط عليه السلام يهجم قومه على بيته يريدون أن يخلعوا باب البيت وأن يظفروا بضيوفه .. وهم ملائكة .. يا له من عار أبديّ أن يظفر فسقة قومك بضيوفك .. فقال بكل ضعف : " لو أن لي بكم قوّة أو آوي إلى ركن شديد" ..

قال نبيّنا عليه الصلاة والسلام : " يرحم الله لوطاً .. لقد كان يأوي إلى ركن شديد"

الزم يديك بحبل الله معتصماً فإنّه الركن إن خانتك أركان ..

يحفظك كما قلنا بالملائكة وبالرعب .. ويحفظك أيضا بأعدائك ! كيف يكون ذلك ؟

يقال إن لصّاً دخل إلى بيت .. وأراد أن يسرق إحدى الغرف وقد كان فيها طفل وأبواه .. فحمل اللصّ الطفلَ ونقله إلى غرفة أخرى فصرخ الطفل فاستيقظ الوالدان مبهوتان .. وتساءلا مالذي أخرج طفلهما فخرجا يبحثان عنه في المنزل .. استغل اللص تلك اللحظة ودخل غرفة الأبوين لسرقتها .. فجأة انهار سقف الغرفة ودفن اللص !

مالذي جاء باللص لينقذ تلك الأسرة من الموت تحت الأنقاض بحيلة كانت عليه لا له ! إنّه الحفيظ الذي يحفظ عباده .. يحفظهم حتى بأعدائهم !

ومن أعظم الأسباب التي تستجلب بها حفظ الحفيظ سبحانه أن تحفظه !

يقول عليه الصلاة والسلام لابن عباس : " يا غلام .. احفظ الله يحفظك .. احفظ الله تجده تجاهك .. تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدّة "

احفظ الله .. يحفظك الله

احفظه في أوامره فقم بها كما أمرك

واحفظه في نواهيه فانته عنها كما نهاك

هذا كل ما في الباب .. وبعد ذلك اشمخ على مصائب الدنيا .. سينجيك الله منها كما أنجى ذا النون بن متّى ..

لا همّ ولا غمّ ولا كرب يقارب هم وغم وكرب ذي النون يونس عليه السلام .. في ظلمات ثلاث : ظلمة البحر .. وظلمة الليل .. وظلمة بطن الحوت .. يا لها من حياة بئيسة تلك التي ستقضيها إلى أبد الآبدين في بطن الحوت على تلك الهيئة الكئيبة ..

ظلام .. ضيق .. اختناق ..

ثم يواجه ذلك السيل من الكروب بكلمة واحدة : " لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين" ..

فتصعد تلك الأحرف الضعيفة .. تخترق بطن الحوت والبحر والليل .. تصعد إلى السماء .. فيسمعها الملائكة فيقولون : يا رب .. صوت معروف من مكان غير معروف ..

فيجيء الفرج .. ويجيء الحفظ .. ويجيء العفو .. فيلقيه الحوت بالساحل .. وينبت عليه الحفيظ شجرة من يقطين ..

كلّنا في هذه الحياة ذو النون .. والحياة قد التأمت علينا بكروبها .. ولن ينجينا منها إلا : " لا إله إلا أنت سبحانك .. إني كنت من الظالمين" ..

قلبُك المهشّم .. كيف تهشّم ؟

من معاني اسم الجبّار : الذي يجبر أجساد وقلوب عباده .. الذي يمدّهم بمراهم الصحة وضمادات السعادة .. ومسكّنات الأوجاع .. ومضادّات الهموم ..

وسنبحر في هذه المقالة سويّاً مع هذا المعنى العظيم .. لهذا الاسم الجليل ..

لأنّه سبحانه علم أن كسوراً ستعتري عباده في أبدانهم وقلوبهم وحياتهم .. كسوراً تترك ندوبها على جباههم ، وآثارها على أرواحهم .. لذلك تولّى جبرها برحمته .. وسمّى نفسه بالجبّار .. ليعلم عباده أنّه هو القادر على جبرها فيلتجئون إليه ..

انكسارات الحياة عديدة !

حادث تتكسّر فيه العظام ، إهانة تتحطّم منها النفس ، فقر تنحني معه الروح ، مرض تنهار عنده القوى ، عقدة تحاصر الطموح ، رُهاب يخنق عفويّتك ، كُره تتمرّد معه أحاسيسك ، ظروف تجعلك تنكّس رأسك !

وبقدر هذه الانكسارات تتفتّح أبواب السماء بضمادات الرحمة ومجبّرات الودّ !

كم من يتيم تكسّر نفسه نظرة صاحبه المتغطرس .. ولولا الجبّار لانشرخت نفسه للأبد ..

وكم من ضعيف صفعته الحياة بيد أحد الأقوياء .. لولا الجبّار لظلّ منحني الرأس طول الحياة ..

وكم من فقير أذلّته كلمة قالها أحد الأثرياء .. لولا الجبّار لبقيت تلك الكلمة وصمة يعيّر بها طيلة عمره ..

يجبر الكسير .. ويساعد الضعيف .. ويرفع من شأن الصغير .. ويقدّم المتأخر .. تضمّد رحماته جراح النفوس ..

التحليليّون من علماء النفس يزعمون أنّ الكبت يولّد العقدة ، والعقدة تترك آثاراً عميقة في النفس ، مما يجعل تلك الآثار تظهر في تصرفات صاحبها وفي انفعالاته .. ويزعمون أن من عانى قسوة الأب فإنّه يتحوّل إلى نسخة شبه مطابقة وكأنّه ينتقم من أبيه في أبنائه ! يزعمون أنّها آثار خالدة في النفس .. من المستحيل أو شبه المستحيل أن تفارق صاحبها ..

ومع هذا نعرف نحن أشخاصاً عانوا من قسوة آبائهم ومع ذلك خرجوا غاية في الرحمة ..

عانوا من سخرية أقرانهم .. ومع ذلك صاروا متميّزين ناجحين ..

عانوا من الأنيميا .. والسل .. وحساسية الصدر .. وكبروا فصاروا أصحاء أقوياء ..

أين تلك العقد .. وأين آثار تلك الأمراض ؟ لقد جُبرت .. لقد أخفتها ضمادات الرحمة .. لقد قدّر الجبار أن تختفي ..

شُرع لنا أن نقول بين السجدتين : " اللهم اغفر لي وارحمني وعافني وارزقني واجبرني .. "

(واجبرني) وكأننا نتكسّر في اليوم كثيراً فنجتاح أن يجبرنا الله كثيرا ..

قبل حوالي ثمانية عشر سنة ماتت ابنة أختي الوحيدة بين يديها ، صرخت صرخة اختناق سمعتها من الغرفة المجاورة ، كانت الصرخة الأخيرة ! ، فدخلتُ على أمّها قبيل الفجر وفي قلبها من الحزن والانكسار ما نمّت عيناها وتنهداتها به ..

فدلَلْتها على الدعاء الوارد " اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرا منها" فقالت ذلك الدعاء وصوتها يتهدّج من وقع المصيبة .. فارتفعت كلماتها المنكسرة إلى من يجبر كسر عباده فعوّضها عن ابنتها اليوم ببنين وبنات رزقها الله برّهم وأفضل عليها وعلينا من عطاءاته ..

إذا التهبت نفسك .. إذا احترقت أحلامك .. إذا تصدّع بنيان روحك فقل : يا الله ..

في العام الفائت التقيت طالباً لديه عُقدة في لسانه ، لا يكاد ينطق بكلمة دون أن يعيدها عدّة مرات ! أمسكته ونصحته أن لا يسجد سجدة لله إلا ويدعو : واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ..

التقيته هذه السنة فإذا به كأفصح ما يكون .. سألته _ وقد نسيت نصيحتي _ عن السبب .. فقال : دعاء : واحلل عقدة من لساني !

لقد حلّ الجبار تلك العقدة ..

إنّه الجبّار .. ما من أسى إلا وهو رافعه ، وما من مرض إلا وهو شافيه ، وما من بلاء إلا وهو كاشفه ..

تتزاحم الآلام في قلب العبد حتى ما يظن أنّ لها كاشفة ، فإذا بالجبّار يجبر ذلك القلب .. وبعد أشهر ينسى العبد كل آلامه وأوجاعه لأن الله لم يذهبها فحسب ..بل جبر المكان الذي حطّمته .. فعاد كأن لم يتهشّم بالأمس ..

يجبر القلوب والعظام والنفوس ويداوي الجراح يكفكف الدموع سبحانه ..

إذا رضّتك الهموم ، وغشيتك الكروب.. فلا تطل البكاء .. سجّادة توجّهها إلى القبلة .. تقضي على تلك الهموم والكروب في لحظات ..

جلس بانكسار بعد صلاة المغرب يستغفر الله ، جيبه خاوٍ إلا من ريالات لا تصنع أمام احتياجات الحياة شيئا .. يكاد الناظر إليه من بعيد يدرك مدى الفاقة ، وكميّة الخدوش المتناثرة في نفسه .. ولكن الجبار كان ينظر إليه من أعلى سماواته .. فما كتب عليه تلك الليلة أن ينام إلا وقد سدّ فاقته بما لم يكن يتوقّعه أو يتخيّله ..

يحبّك سبحانه مبتسماً ، فيصنع من جميل أقداره ما يعين ثغرك على الافترار .. ويجعل الابتسامة تطرد ملامح الكرب عن وجهك ..

إذا رأيت منكسراً فاجبر كسره .. كن أنت الذي يستخدمك الله لجبر الكسور .. لا تنم وجارك جائع ، لا تضحك وأخوك يبكي ، لا تنعم بدفء بيتك وهناك من هدهدت رياح الشتاء أبدانهم الضعيفة ..

يقول أحدهم : رأيت عجوزاً تدفع عربة بقرب الحرم مليئة بالحاجيّات ، كانت السنوات قد شقّقت جلدها بما فيه الكفاية .. رأى فيها أمّه .. فبكى كل شيء فيه .. وكان آخر ما بكى عيناه .. أخرج كل ما فيه جيبه ودسّه في يدها ونفسه تكاد تسقط من الحزن على تلك المسكينة ..

يقول : لم يدر بخلدي أني أتكرّم عليها .. أو أن الشكور الحميد سيشكرني .. كنت فقط أرتق شرخاً جلبته صورتها المنكسرة في نفسي .. ولم أفلح !

لم يمض ذلك الشهر إلا وأضخم مبلغ يحصل عليه في حياته مودع في حسابه البنكيّ !

لن يدعك الله تجبر كسور الضعفاء ثم لا يشكرك .. فهو الشكور الحميد..

كن بلسماً إن كان دهرك أرقما وحلاوة إن صـــــار غيرك علقما

كن النافذة التي يتسلل منها الهواء الشفيف على النفوس التي خنقتها أدخنة الحياة الصعبة .. تخلّق بخلق الجبر .. كن اليد العليا ..

يزور النبي صلى الله عليه وسلم اليهودي المريض ..

يكنس عمر بن الخطاب بيت العمياء ويطبخ لها طعامها ..

يموت عبد الله بن المبارك فيفقد الفقراء تلك الأرزاق التي كانت توضع عند أبوابهم قبيل الفجر .. فيعلمون بعد موته أنّها منه!

يموت أعدى أعداء ابن تيمية فيبشّرونه بذلك ، فيغضب ويذهب مباشرة إلى أهل وأبناء الميّت ويعزيهم ويقول لهم : أنا كوالدكم .. لا تحتاجون شيئاً إلا وأخبرتموني ..

كانوا منشغلين بالمهمّة العظيمة .. مهمّة جبر القلوب المنكسرة .. كان الله يستخدمهم لذلك الشرف العظيم ..

أخبرني صاحبي وقد كان طالباً في جامعة أم القرى أنّه وفي طريقه إلى الجامعة لقي معتمراً يسأله عن مركز الشرطة ، أخبره صاحبي أنّه مستعجل فموعد مادّة النقد قد شارف على البدء والتي كان الأسبوع القادم هو موعد الاختبار (الصعب) فيها .. ومع ذلك فقد أركبه ليقرّبه من وجهته .. وفي السيارة أخبره أنه وقبل ثلاثة أيام فقد في الحرم محفظته وجوّاله وجواز سفره وكل ما يثبت شخصيّته .. أصبح مجهول الهويّة ، لا يستطيع الأكل ولا المبيت ولا التواصل مع أحد !! .. قال ذلك المعتمر لصاحبي : لقد تعتبت _ وعند هذه الكلمة بالذات أجهش بالبكاء _ ثلاثة أيام وأنا أشخذ الناس وأنام في الشوارع .. كان منكسراً بدرجة كبيرة ..

يقول صاحبي إنّه واساه ، وذكّره بالله ، وقال له : إنّ الله لم يُفقدك هذه الأشياء في الحرم حتى تذل لغيره .. فقط اسجد له واطلبه وسوف يحبوك .. ثم أعطاه ثلاثة وثمانين ريالاً .. هي كل ما وجده في جيبه .. وأنزله وقد رأى ملامح الابتسامة على ثغره ..

بعد أسبوعين ظهرت درجة اختبار "مادّة النقد" والذي لم يحلّ فيه أي فقرة لصعوبته ، وقد وطّن نفسه للرسوب فيها لأنه يستحق فيها الصفر ! فإذا بها ثلاث وثمانين درجة من مئة !

نعم .. أشياء كلّما حاولت أن تنكر وجودها .. ظهرت بشكل أوضح وأصرح .. كلما قررت ألا تسمعها صرخت بصوت أكثر إذهالا وإدهاشاً .. إنّه الله يا صاحبي إنه الله ..

لمّا استعمله الله في جبر كسر ذلك المعتمر شكره ..

كانت جدران السجن الرماديّة وسوط الجلاد وسنين العذاب ترهق كاهل سيّد قطب .. فينام والكرب واقف عند رأسه .. فيرسل إليه الجبّار رؤيا .. ينفض بها كل تلك الخرافات .. فيستيقظ ولا حقيقة في نفسه إلا الجنّة .. فتشغله الجنّة وذكراها عن تأمّل أوجاع روحه وجسده .. فيكتب رسالته لأخته حميدة " أفراح الروح" ... يكتب عن أفراح الروح والسياط تنقش على ظهره عروق الدماء .. ولكن رؤيا تجعل كل شيء برداً وسلاماً ..

فالزم يديك بحبل الله معتصماً   فإنّه الركن إن خانتك أركان

إذا طرقوا أبواب الملوك .. فاطرق أنت باب الملك الأعظم

إذا وقفوا بذل فوق ساحة أمير .. فقف أنت بساحة الإله الأكرم

إذا سافروا من مستشفى إلى مستشفى .. فقم بالليل وقل : ياالله ..

بيده مفاتيح الفرج .. الشفاء له خزينة عظيمة القدر والحجم .. أتعلم أين هي تلك الخزينة ؟ إنها عند الله .. " وما من شيء إلا عندنا خزائنه"

السعادة كذلك لها خزينة ..

الرضا .. الراحة .. الأمان .. أتترك من بيده ملكوت كل شيء .. وتنصرف إلى عبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّا ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا ؟

وإن كان ملكاً أو أميراً أو وزيراً ..

كم هو مضحك أن يترك زائر الملك الانشغال بالحديث مع الملك ليدخل إلى حجرة الخادم ويتحدّث إليه ..

نحن نفعل ما هو أكثر إضحاكاً من هذا حين نترك مناجاة الملك سبحانه وطلبه ما نريد ونذهب في رحلة علاجيّة إلى واشنطن أو انجلترا ونعود بعد أشهر معنا الخيبة والخسارة وتابوت فيه ميّت !

عش أياما مع الجبّار .. أمرّ هذا الاسم على جروحك .. اجعله البلسم لعذابات روحك .. أيقظ به أزاهير الفرح في نفسك .. اصنع بتأملاتك فيه شمس حياة .. تقضي على مكروبات الخواء الذي كنت تعيشه ..

ينزل رسولنا صلى الله عليه وسلم من الطائف محمّلا بقدر عظيم من الحزن والحرقة والانكسار .. بعد أن أدمى صبيان الطائف عقبيه الشريفتين بالحجارة .. يراه ملك الملوك .. ملك الدنيا والآخرة .. يراه حبيبه سبحانه .. يرى قلبه المكتظ بالآهات .. فيرسل جبريل معه ملك الجبال .. لينهي تلك الحُرَق .. يرسله في مهمّة خاصة .. مهمّة تتعلق بدكدكة الجبال الراسية ..

فينظر ملك الجبال إلى مكة التي تسبب أهلها في خروجه وتعرّضه لكل تلك الآلام فيقول : أمرني الله أن أمتثل لأمرك يا محمد .. فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت ..

إذا أراد أن يجبر كسرك .. أهلك مدينة بأكملها لأجلك ..

ولكنّ محمداً عليه الصلاة والسلام يستأني بهم ويعفو عنهم ..

عندما لذعت السخرية بسياطها الحارقة قلب نوح .. نظر إلى السماء ودعا ربّه : إني مغلوب فانتصر .. ففتح الملك سبحانه أبواب السماء بماء منهمر ..أغرق الكرة الأرضية لأجل نوح عليه السلام ..

هل يستطيع غير الله أن يجبر كسور الروح بمثل هذا ؟

بعض الأشخاص يظنون أن من مهماتهم تدميرك ..

السخرية بك ..

إظهارك بحجم صغير جدّاً أمام رفاقك ..

لولا الجبّار لطحنتك مكائدهم ..

يدخلون إلى عينيك ويسرقون أجمل أحلامك ..

وكلما انتزعوا حُلماً ، خلق الله لك حلما أجمل ..

وقد زوّد الجبار حياتنا بمجبّرات ومضمّدات وأدوية .. نعلم بعضها ، ونجهل أكثرها خلقها وأودعها في كونه لأجلك .. حتى تبتسم ، وتعيش حياة كريمة .. حتى تتفرّغ لعبادته ..

تلتئم جروحنا عندما نتعاطى الدواء الناجع لها .. وعندما نأكل الطعام الصحّي .. وعندما نشرب الماء النقي ..

تصحّ أرواحنا لمّا نرى الابتسامة في أوجه الآخرين .. وحين نشعر بأكفّهم تربت على أكتافنا .. وعندما نسمع الكلمة الطيبة ..

نتجاوز عقدنا عندما نصادف قلباً ينبض بحبّنا .. ويدا تمتدّ لمساعدتنا .. وفنجان قهوة نرتشفه بمعيّة من نقدّر ..

هناك أشياء تلتئم في داخلنا عندما ننظر للطبيعة الجميلة .. ونسمع خرير الماء .. ونحدّق في العصفور وهو يُطعم فراخه ..

الصلاة تردم هوّة اليأس في أرواحنا .. وسبحان ربي العظيم تخلق فرحاً نجد طعمه في ألسنتنا .. وسبحان ربي الأعلى تحلّق بنا حول العرش ..

دعوات الوالدة دفء في شتاء الحياة .. وزيارة الصديق متعة في صخب العيش .. وسؤال الجار عنك يلوّن لوحة نفسك الرماديّة ..

عصير البرتقال يجبرك على الابتسامة .. وقطعة الحلوى التذاذ خاص .. والحمّام الدافئ شعور بانحسار الأتعاب ..

الحياة مليئة بالمجبّرات .. وربنا يريدنا أن نسعد .. أن نبتسم .. أن نحيا حياة جميلة

أخيرا : ما الذي يبطّئك عن الله ؟

ما الذي يجعلك تتأخر في الانضمام لركب الأوّاهين الأوابين .. الذين يتغنّون بكلامه في جوف الليل ..

شكل الجنين في بطن أمه قريب جدا من شكل الساجد لله !

فكن في حياتك ساجداً كما كنت في بطن أمك .. يكفيك الله رزقك ويجعل أضيق الأماكن أهنأها .. ويحيطك برحمته ..

كن ساجداً بقلبك .. وإن رفعت رأسك ..

قل بنبضاتك : سبحان ربي الأعلى .. وإن كنت ضاحك الثغر ..

اهمس بشرايينك : يا جابر المنكسرين اجبر كسري .. ثم تأمّل في المعجزة وهي تشكّل روحك من جديد ..

الذي يراك حين تقوم!

في الوقت الذي يريدك أن تعلم أنّه على العرش استوى .. يريدك أن تتيقّن أنّه أقرب إليك من حبل الوريد ..

يسمع كلماتك .. ويرى أفعالك .. ولا تخفى عليه منك خافية ..

يدخل الرسول صلى الله عليه وسلم المسجد فإذا بصحابته الكرام رافعي أصواتهم يدعون الله .. فيقول : " أربعوا على أنفسكم .. إنّكم لا تدعون أصمّ ولا غائبا .. إنّما تدعون سميعاً بصيراً قريبا " .

بمجرّد أن ينتهي العبد من الدعاء إذ بالإجابة تلوح .. لأنّه قريب بدرجة لا يتصوّرها عقلك ..

تضيع دابّة أحدهم فيمشي مبهوتاً فيراه إبراهيم بن أدهم فيسأله فيقول : ضاعت دابّتي .. فيقف إبراهيم ويقول : يالله .. لن أمشي خطوة حتى تعيد لهذا دابّته .. فإذا بها تظهر من منحنى الطريق ..

أحدهم يدخل المسجد وما زال أثر ماء الوضوء في أذنيه فيتّجه إلى الصف الأول مقابل جهاز التكييف مما يجعل الهواء البارد يدخل إلى أذنيه على أثر الماء .. بعد ساعة يشعر ببداية ألم في أذنه .. لم يفتح شفتيه وإنما قال بقلبه : يالله .. كان ذلك من أجلك .. يالله لم أصل في الصف الأول إلا لأنّك تحب ذلك .. فإذا بالألم يرتفع هكذا بدون مقدّمات وبلا تدرّج !

وأقرب ما تكون إليه وأنت ساجد .. تتمتم بـ سبحان ربي الأعلى .. فإذا بالسماوات تنصت إليك .. وإذا بالجبار يسمعك ..

لا تتوهم أنّه بعيد .. أو أنّه تخفى عليه منك خافية ..

يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في جوف الليل .. ويذهب ليطرق باب أبي بن كعب .. فيخرج أُبي .. فإذا برسول الله يخبره : أمرني الله أن أقرأ عليك سورة الفاتحة .. يقول أُبيّ بذهول : وسمّاني ؟ فيقول نعم .. فيبكي أُبيّ ..

قريب من جميع خلقه .. يراهم ويحميهم ..

كيف يكون قيّوما على خلقه لو لم يكن قريبا منهم ؟

كيف يكون ربّا .. إلا وهو قريب ..

يقول عليه الصلاة والسلام عنه سبحانه إنه " أقرب إلى أحدكم من شراك نعله " .. ويقول عن نفسه : " ونحن أقرب إليه من حبل الوريد " ..

وهذا دليل على القرب المتناهي .. قرب علم وقرب سمع وقرب بصر وقرب إحاطة .. لا قرب ذات .. لأنّ ذاته العليّة منزّهة عن مثل هذا القرب ..

ومن قربه أنّه ينزل كما صحّ عن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام في الثلث الأخير من الليل إلى السماء الدنيا فيقول : هل من سائل فأعطيه ، هل من مستغفر فأغفر له .."

ومن قربه أنّه : يسمع دبيب النملة السوداء على الصفاة الصمّاء في الليلة الظلماء ..

يقول تعالى : " ما تسقط من ورقة إلا يعلمها "

تخيّل عدد الأشجار .. ثم عدد أوراقها .. تخيّلها وهي تتناثر في فصل الخريف .. كلّها يعلمها : يعلم عددها وأشكالها وأنواعها وكل شيء يخصّها ..

يقول الشاعر وهو يصف القرب المتناهي وعلمه سبحانه البالغ الدقة :

يا من يرى مدّ البعوض جناحها   في ظلمة الليل البهيم الأليـــــلِ

ويرى مناط عروقها في نحرها   والمخ من تلك العظام النُحّـــــــــــلِ

ويرى خرير الدم في أوداجها   متنقلا من مفصل في مفصـــــــــــلِ

ويرى مكان الوطء من أقدامها   في سيرها وحثيثها المستعجلِ

امنن عليّ بتوبة تمحو بها   ما كان منّي في الزمـــــــــــــــان الأوّلِ

قريب ..

تأتي امرأة تجادل في زوجها .. وعائشة رضي الله عنها في طرف البيت تقول إنها تسمع كلمة وتغيب عنها كلمة .. وبعد ذلك الجدل ينزل جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم أن " قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير"

مدّ يدك الآن .. أمددتها ؟ .. لقد رآها ! .. يجب أن تؤمن بذلك ..

قال لي صديقي مرّة اكتب لي في هذه الورقة كلمة لأقرأها وأنا عائد إلى البيت .. فكتبت له : إنّه يراك الآن .. أخبرني فيما بعد أنّه فُجع بها ..

قربه يخيفك .. يجب أن يخيفك

وقربه يؤنسك .. يجب أن يؤنسك ..

وقربه يدفئك .. يجب أن يدفئك ..

وقربه يجعلك شجاعاً شامخاً بطلاً ..

اسمع إليه وهو يهدّئ من روع موسى عليه السلام عندما أعلن خوفه من الذهاب إلى فرعون فقال له : " إنّي معكما أسمع وأرى" هذا يكفي .. كوني معكما أكبر حماية لكما ..

لأني معكما يجب ألا تخافا من فرعون .. يجب أن تكونا شجاعين بطلين شامخين ..

ومما قُرر في كتب العقيدة أن له معيّتين : معيّة خاصة بأهل ولايته ، وهي معيّة محبّة ونصرة وتوفيق ...، ومعيّة عامّة لجميع خلقه .. وهي معيّة علم وسمع وبصر وإحاطة ..

ومن أجلّ الآيات وأكثرها أنساً في هذا الباب قول الحق : " الذي يراك حين تقوم * وتقلبّك في الساجدين" ..

حين تقوم .. يراك .. في تلك اللحظة السوداء المظلمة التي لا يعلم أحد فيها عنك شيئا ، يبصرك لحظة بلحظة ..

إذا صفعتك المخاوف فتذكر قربه ..

وإذا التأمت حولك الخطوب فشتتها بفكرة أنّه أقرب إليك من حبل الوريد ..

مما يذكر أن أحدهم كان مسافراً في الصحراء فإذا بقاطع طريق حاملا سيفه يريد قتله .. قال له : خذ مالي .. فقال : لا .. أريد أن أقتلك ثم آخذ مالك ..

فاستأذنه بركعتين فأذن له : قال نسيت كل القرآن ولم أذكر إلا : " أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء " رددتها وما أنهيت الصلاة إلا وفارس لا أدري من أين ظهر يضرب ذلك الرجل ضربة بسيفه يطير منها رأسه !

إنّه القريب .. فقط حرّك شفتيك بذكره .. تتفتّح أبواب السماوات لصوتك ..

كان يونس عليه السلام في بطن الحوت ينادي " لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين" .. فكان الصوت الضعيف المنطلق من الظلمات الثلاث يخترق أجواز الفضاء لتسمعه ملائكة السماوات فيقولون للرب سبحانه : " صوت معروف .. من مكان غير معروف !!" ..

يقول في الحديث القدسي : " من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي .. ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم " لأنّه قريب.. فقط قل يا الله .. يكون الرد بأن يذكر اسمك ..

ما أجلّ أن تتخيّل أن ملك الملوك هذه اللحظة يقول اسمك ! يقول : عبدي فلان بن فلان ذكرني ..

الدنيا كلّها تافهة .. لا تساوي مثل هذا التخيّل ..

وقربه هذا يزيد .. فبالتوبة والإنابة والطاعات تزيد قربا منه يقول في الحديث القدسي : " إذا تقرّب مني شبرا تقرّبت منه ذراعا .. وإذا تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا " ..

فكل محاولة اقتراب منك إليه بالطاعة يعقبها اقتراب منه إليك بالأفضال والنعم والعطايا والهبات ..

ومن معاني قربه أنّه يريك في كل شيء من حولك معنى يذكّرك به ..

فترى حكمته في دقّة تركيب مخلوقاته ..

وترى قدرته في رفع سماواته بلا عمد ..

وترى رحمته في إنزال المطر وإنبات الشجر ..

وترى عظمته في شموخ الجبال ..

وترى عذابه في البراكين والزلازل والكوارث ..

إلهي ..رايتك

إلهي سمعتك

رأيتك في كل شي ..

سمعتك في كل حي ..

تعاليت لم يبد شيء لعيني

تباركت لم ينب صوت بأذني

ولكن طيفاً بقلبي يهل

ومن طيفه كل نور يطلّ

***

يقول تعالى : " سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق"

إذا أبصرت شيئا بعينيك فبصرك يذكرك بالبصير سبحانه

وإذا سمعت همسا في دجى الليالي فسمعك يذكرك بالسميع سبحانه

وإذا علمت شيئا من خفي العلم فعلمك يذكرك بالعليم سبحانه ..

وفي كل شيء له آية تدلّ على أنّه الواحد

قريب لا تحتاج حتى تصل إليه إلاّ أن يخطر ببالك .. أن تشعر بقربه .. أن تحسّ بأنّه يراك .. ثم تقول : يالله ..

" وإذا سألك عبادي عني فإني قريب "

أي شخص يسألك عن الله فأوّل شيء تصف ربّك به هو أنّه قريب منه ! النفوس مفطورة على عدم استعدادها لعبادة رب بعيد .. لا يسمع دعاءها .. ولا يرى حاجاتها .. فمن أهم الصفات التي تبتدر بها الذي يريد التعرّف على الله أن تخبره أن ربّه " قريب" .. هكذا علّمك سبحانه أن تخبر عنه !

وهذا القرب علاوة على أنه يجعلك تحبّه ، وتأنس به ، وتخشاه .. إلا أنه فوق ذلك يجعلك تدمن على استغفاره والتوبة إليه .. فالقريب : من جهة يستحق أن يُستغفر ويتاب إليه لأنّه بقربه اطلع على كل غدراتك وفجراتك .. ومن جهة أخرى فهو قريب قرباً يجعل استغفارك وتوبتك ناجعة ، فلن يغفر لك إلا من سمع استغفارك ولن يتوب عليك إلا من علم توبتك .. فهو القريب المجيب .. وبعد هذا تأمل قوله سبحانه : "فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب "

ومن نوادك التعابير التي تصيبك بالحياء من القريب سبحانه قول أحدهم : " ألا يستحق أن تحبّه ؟ : في اللحظة التي تغلق الباب على نفسك لتعصيه .. يدخل لك الأكسجين من تحت الباب لتتنفس "

وهذا القرب يقابله محاولة تقرّب من العبد إليه سبحانه : "أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب " .. إنّه مضمار المسارعة ، والمسابقة .. والتي لا يكون قصارى رغبة العبد منه أن يكون قريباً بل أن يكون الأقرب !

الله قريب من غزّة

وفي أجواء المحن التي تعيشها الأمة ، ومن بين أدخنة الحروب المهلكة التي تمسّ أفئدة المؤمنين في غزّة وغير غزّة باللأواء ، يحتاج المؤمن هناك إلى ثلاث مستويات معرفية متعلّقة باسم القريب :

الأولى : معرفة قربه سبحانه إيماناً ويقيناً .. ليريح نفسه من عناء الصراخ والاستنجاد بالبشر .. فرب البشر قريب شهيد مطّلع .. فيجد في القرآن آية تقول له بكل وضوح : " إنه سميع قريب " .. فيلقي عند أعتابها حرقات روحه المكلومة .. وكل ما سبق في المقالة يصب في خانة هذا المستوى المهم ..

الثانية : ومن بين لهيب القهر ، ورؤية تفاصيل الشتات ، وتهدّم البيوت ، وموت الأنفس ، وهلاك الثمرات .. يريد رحمة .. يبحث عن رحمة .. يتمنى رحمة تنهي عذابات خذلان الإخوة .. وطعنات الغدر المتوالية ..فيقف عند قول الحق سبحانه :" إن رحمة الله قريب من المحسنين " .. يالله .. إذن ليس بين ذلك المجاهد المغوار الذي نذر روحه للجبار إلا ستار شفيف تلوح من خلفه مخايل الإحسان .. فقط يحتاج أن يجاهد في الأرض بطريقة ملائكية يشعر فيها أنّه يرى الله ! فإن لم يكن يرى الله فإن الله يراه .. فلا يطلق رصاصة إلا ولديه جواب عن لماذا وكيف ومتى أطلقها ! ولا يزال العبد ينتقل من إحسان إلى إحسان .. وتكون في المقابل رحمة الله أقرب إليه من غيره .. حتى تغشاه الرحمة من كل مكان .. تنتزعه من أدخنة الموت إلى سحائب الرضا ..

الثالثة : وتطول الأيام .. وتتوالى الزفرات .. وتشتد البلاءات .. ويُحكم الحصار من كل مكان .. وعند ذلك تطلّ روح المجاهد على آية ثالثة يقول فيها الحق : "ألا إن نصر الله قريب" ..

فكما أنّه قريب سبحانه من عباده .. وكما أن رحمته أيضاً قريبة من المحسنين منهم .. يأتي النصر القريب من جند الله .. " وإن جندنا لهم الغالبون " ..فيربط الله بذلك على قلوب أضناها الانتظار .. وأرهقها الاصطبار ..

وبعد هذه السياحة التفكرية في اسم الله القريب .. أسأل الله أن يجعلنا ممن يستحضر قربه .. ويعمل وفق ما يمليه هذا الاسم الأعظم من معاني الذل والإخبات والمراقبة والخشية .. وطلب الرحمة والنصرة منه وحده ..

هذا وصلى الله وسلم على سيدنا محمد .. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..

لا مرض بعد اليوم!

المرض فضيحة كبرى تُبتلى بها غطرسة البشر !

ذبول مفاجئ يفقد فيه الإنسان ازدهاره ..

نكسة لحيويّة ذلك الهَلوع المنَوع ..

قدّر الله سبحانه وتعالى على هذا الجسد أن تنطفئ نضارته مؤقتاً .. حتى يقتنع الإنسان بضعفه ، وبأنّه لا حول له ولا قوّة ..

قدّر الله المرض على الإنسان حتى يتذكر شيئا أشبه ما يكون بهذا المرض .. إنه الموت .. فكما أن المرض نهاية الحيوية فكذلك الموت نهاية الحياة ..

أيها الإنسان .. إن حقيقتك الموت .. وإنّ كل شيء فيك يشبه الموت .. نومك موت .. مرضك موت .. انتقالك إلى مرحلة عمرية موت للمرحلة السابقة .. فالشباب موت الطفولة .. والكهولة موت الشباب .. إنّك أشبه بالموت من الحياة .. ومع ذلك فإن الوهم يجعلنا نعتقد أننا مخلّدون ولهذا يصرخ المرض بأجسادنا .. أنّها إلى زوال ..

وبينما يستلقي ذلك الجسد المنهك على سرير المرض .. ينظر إلى الداخلين إليه والخارجين من عنده .. وهم يحملون على رؤوسهم تيجان الصحّة والعافية .. بينما يحدث ذلك .. تستقيظ في داخله ذكريات التراب .. فتعمّ كيانه نكهة المقبرة .. شعر بذلك أم لم يشعر ..

روحك وأنت مريض تكون في اجتماعات مغلقة مع الموتى .. وبدايات الانهيار الداخلي تنضح بها عيناك وشفتاك وارتجاف في أطرافك الباردة ..

ها هي الحياة التي في داخلك تلوّح بكفيها مودّعة أولئك الزائرين ..

ولمّا يأخذ المرض مداه .. وتنغسل أنت من الدنيا جيّداً .. يأذن الشافي سبحانه للداء بالانصراف عن جسدك .. ويأمر الصحة أن تعاود سيرتها الأولى .. فإذا باللون الورديّ يتصعّد على وجنتيك .. وتعود ابتسامة أذبلتها أيام الرُحَضَاء ..

لأنّه الشافي : يشفيك بسبب ..

ويشفيك بأضعف سبب ..

ويشفيك بأغرب سبب ..

ويشفيك بما يرُى أنّه ليس بسبب ..

ويشفيك بلا سبب !

يشفي بالأعشاب .. ويشفي بالأدوية المركّبة والمفردة .. ويشفي بالغذاء .. ويشفي بالماء ..

ومن أغرب ما قرأت أن طفلا مصاباً بالسل وأمراض أخرى حكم بأن موته قد شارف .. وأذنوا لوالده أن ينقله معه إلى الريف ليستمتع في آخر أيّامه بهواء الريف العليل ومناظر الحقول الطبيعية ..

وبينما هو يمشي وبيده قطعة كعك باردة إذ لقيه رجل طاعن ونظر إلى عينيه الذابلتين وسأله : هل تريد الحياة يا بُني ؟ فهزّ رأسه أن نعم .. فقال : كيف تحصل على الحياة وأنت تأكل طعاماً ميّتاً ؟

عليك بالطعام الحيّ .. اللحوم والخضروات وكل ما أنتجته الطبيعة ومازالت حرارة التراب فيه وأثر الحياة عليه ..

يقول الطفل فنزلت نصيحة ذلك العجوز من قلبي منزلا فصرت لا آكل إلا الطعام الحي .. فتحسّنت صحّتي وتورّد جسمي .. مما حدا بأبي أن يذهب بي إلى المستشفى وبعد كشوفات وتحاليل فغرت أفواه الأطباء : المرض لم يعد له وجود !! يحكي هذه القصة نفس الطفل بعد أن كبر وأصبح أشهر معالج بالغذاء في العالم إنّه " جايلورد هاوزر" في كتابه الرائع " الغذاء يصنع المعجزات"

نعم حكم عليه الأطباء بالموت .. ولكن ملك الملوك لم يحكم عليه بذلك ..

نعم أراد الأطباء أن تنتهي حياته في الريف .. ولكن الله لم يرد ذلك ..

نعم عجز الأطباء عن علاجه .. ولكنّ الله لم يعجز ولن يعجز ولا يعجز ..

من الذي أودع أسرار الشفاء في الخضروات واللحوم وغيرها من النباتات والأشياء التي في متناول أفقر رجال الدنيا؟ إنه الله الشافي ..

فلعلّك مصاب بمرض .. وأنت لا تدري .. وتأكل الطعام الذي فيه شفاؤك وأنت لا تدري .. تمرض ويشفيك وأنت لم تعلم أصلا بمرضك ولا بشفائك !!

وقد يضع سبحانه شفاءه في الماء .. وكلّنا يحفظ " ماء زمزم لما شرب له" وهو " طعام طُعم وشفاء سُقم " .. وكم من مريض أضناه المرض فأدمن شرب هذا الماء المبارك فبرئ بإذن الله ..

ومن استعرض أحاديث الشفاء وجد كمّا كبيراً من الأدوية النبويّة ، جمعها ابن القيم في كتابه " الطب النبوي "

فمن الأدوية على سبيل المثال لا الحصر : القسط البحري والهندي ، ولبن البقر ، وسمنها ، والسنا والسنوت ، والحبة السوداء ، والتلبينة ، وقيام الليل ...الخ وفي كل ذلك أحاديث صحيحة ..

وهو سبحانه : يشفي بالصبر .. يشفي بالدعاء .. ويشفي بالصدقة .. ويشفي بالاستغفار .. ويشفي بالتوبة .. ويشفي بالرضا .. ويشفي بلا شيء ..

دخل علينا في مكتبنا في مستشفى الملك عبد العزيز بتبوك والهلع ينسج على وجهه ضبابة قاتمة اللون .. افتقدنا في تلك اللحظة ابتسامته الأليفة .. سألناه .. فإذا به يحكي لنا عن أنّ ابنه منوّم في الدور العلوي .. لقد وقع عليه حادث وفقد بسببه بصره ..

يا لهول فجيعتنا .. فكيف بفجيعة قلب هذا الأب ..

قال وبرجاء : أريد من أحدكم أن يقوم معي ويرقي ابني .. علّ الله أن يشفيه ..

نهض صاحبي على الفور وذهب معه ..

بعد ساعة عاد صاحبي وأخبرني أنّه رقاه ثم أمسك بالأب وصبّره وأخبره بحديث " داووا مرضاكم بالصدقة" _ وقد حسّنه الألباني بمجموع طرقه _ .. قال فأخرج الأب من جيبه خمسمئة ريال وقال له تصدّق بها بنيّة الشفاء عن ابني ..

بعد يومين دخل الأب بوجه آخر وطلب من صاحبي مرافقته .. عاد صاحبي بعد نصف ساعة تقريباً متهللا وقال : أبشّرك .. صار يرى شيئا من نور الغرفة ..

ثم أخبرني أن الأب أعطاه ألف ريال ليتصدق بها .. كان ذلك اليوم نهاية الأسبوع ..

يوم السبت .. أخبرني صاحبي أن الأب جاءه وأخذه إلى غرفة ابنه .. ولم أصدّق حين قال لي إن ذلك الطفل قد صار يرى مثلنا ..

من الذي شفاه ؟ من الذي كتب لعينيه الحياة .. من الذي أعاد ذلك الضياء إلى مقلتيه ؟

"إنّما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون" ..

سبحانه قال لبصره عد .. فعاد البصر ..

لا يريد منك سوى العودة إليه .. أن تتلمّس الطريق المؤدية إليه ..

عد إليه بالرضا .. عد إليه بالسجود .. عد إليه بالتوبة .. عد إليه بالاستغفار.. عد إليه بالصدقة .. عد إليه بالاعتراف ..

اطرق بابه بأي وسيلة كانت .. المهم أن تعود .. ثم ارتقب الشفاء ..

ليس هناك مستشفى في الدنيا تداويك إذا لم يشأ الله لها ذلك ..

ليس هناك طبيب في العالم يستطيع أن يشخّص مرضك .. إلا إذا أراد الله ذلك ..

أحد الأثرياء مصاب بالفشل الكلوي يسافر به أبناؤه إلى مصر لزراعة كلية ..

اتفق الأبناء مع أهل فتاة صغيرة في السن على مبلغ مئة ألف ريال سعودي ثمناً لكليتها ..

وفي الصباح كان الجميع في المستشفى ..

طلب الرجل قُبيل العملية اللقاء بالفتاة التي قررت بيع كليتها له .. دخلت إليه في خفر وحياء .. فسألها : ما الذي دعاك إلى أن تبيعي كليتك لشيخ كبير مثلي ؟

فقالت : الحاجة .. أسرتي فقيرة .. وإخوتي في الجامعة .. يجب علي أن أفعل شيئا لأساعدهم **!!**

هو ثري لم يسمع في حياته بالحاجة هذه ..

كأنّها صفعته ..

أيقظته من سبات .. نسي معه احتقانات الدم الفاسد في جسده ..

تساءل في نفسه : أيُعقل أن يستغني إنسان عن جزء من جسمه .. عن قدْر من حياته لأجل أن يأكل .. أن يعيش ..

طلب للفور أبناءه .. دخلوا عليه فأمرهم أن يعودوا به إلى السعودية فقد ألغى فكرة الزراعة ..

وأخبرهم أن مبلغ المئة ألف صدقة منه للفتاة .. لا يأخذوا منه ريالا ..

وبعد مقاومة من أبنائه .. وغضب من بعضهم إذ بهم يرضخون لرغبة أبيهم ..

وبعد عودته إلى السعودية يذهب إلى المستشفى كالعادة للغسيل ، وفي فحص روتيني يكتشف الأطباء وبذهول أن كليته الفاشلة عادت للعمل **!**

قدرة ملك الملوك على الشفاء لا تحتاج إلى مبضع جرّاح .. إنّه الملك الذي ينظر من علياء ملكه : فيشفي مريضا ، ويواسي مكروبا ، ويعيد مسافرا ، ويبرئ جريحاً ..

الله ..

يمرضك لتعود إليه فإذا عدت إليه رفع المرض إذ أنه لم يعد للمرض حاجة

يمرضك لتتواضع فإذا تواضعت وذللت رفع عنك المرض لأنه لم يعد له حاجة

يمرضك لتشعر بالآخرين فإذا شعرت بهم رفع عنك المرض لأنه لم يعد له حاجة

يمرضك ليختبر صبرك ورضاك فإذا صبرت ورضيت رفع المرض لأنه لم يعد له حاجة

الشافي الذي لن تحتاج إذا أردت الدخول عليه إلى موعد مسبق ، وبطاقة تؤهلك للعلاج ، وأن تأتي قبل الموعد بربع ساعة على الأقل هو الله !

فقط قل : يا الله .. فإذا بأعظم مستشفى إلهي تفتح أبوابها .. إنّها مستشفى الرحمة القدسيّة ..

يقول صديقي إنّه سمع تهشّم عظام ذلك الطفل تحت إطارات سيّارته .. أوقف السيارة ، وحمل الطفل إلى المستشفى وقلبه يرجف .. جاء أبو الطفل وجدّه .. كان صديقي فاقد الصواب .. لم يدر بخلده أنّه سيقتل طفلاً في حياته ..

كان صوت العظام المتكسّرة يتردد في أذنيه ..

أقبل إليه جدّ الطفل وهدّأ من روعه وأخبره أن ما يكتبه الله سيكون .. وسيرضون به ..

صلى بهم ذلك الجدّ صلاة العشاء في مسجد المستشفى وقرأ " وبشّر الصابرين" .. بكى صديقي بحرقة ..

بعد الصلاة خرج الأطباء وأخبروا الأب والجد أن الأمل في حياة الطفل ضئيل .. فهو يعاني من تهشّم فظيع في الجمجمة ..

صُعق صديقي .. عاد خائر القوى إلى بيته ..

غاب عن العمل أسبوعاً كاملاً ، فقد كان في صدمة مذهلة ..

لم يكن هناك دواء لذلك الطفل البئيس أعظم من إيمان جدّه ودعوات أمّه ويقين أبيه وتعلّق الجميع بالله ..

بعد أقلّ من أسبوع زرت بنفسي ذلك الطفل الجميل .. فإذا به يضحك ويلعب ويقوم ويتحدّث معنا .. صدق الله وكذب الأطباء .. صدق جابر العظام المنكسرة " ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها "

من الذي يستطيع أن يلأم تلك العظام المتنافرة ، ويعيد البسمة إلى ذلك الثغر ، وينفخ الروح من جديد في جسد انفتحت له أبواب المقبرة ؟

الله وحده يفعل ذلك ..

هذا هو أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام .. الذي جاء ربّه بقلب سليم .. سليم من أي ذرّة شرك قد تعتري قلباً ضعيفاً .. يقولها عليه الصلاة والسلام لنفهم الدرس ولا نلتجئ إلا للحي الذي لا يموت : " وإذا مرضت فهو يشفين" ..

هو وحده ..

ضع نقطة هنا .. لن تحتاج إلى غيره إذا أراد شفاءك .. ولن يفيدك غيره إذا لم يرد ..

يرضّ الجدريّ أيوب عليه السلام .. تتشتت أسرته .. تتبعثر أملاكه .. أفضل الناس تفاؤلا يفقد الأمل في شفائه .. وهو صابر محتسب .. تشتعل الأسقام في جسده وهو منكّس الرأس لمولاه ..

وبعد سنوات البلاء .. تندّ من شفتيه شبه دعوة .. ليست دعوة كاملة .. إنها إيحاء .. إنّها زفرة حيية يقولها العارف بربّه ..

" إنّي مسّني الضر .. وأنت أرحم الراحمين" ..

فإذا بأبواب السماء تنفتح بالرحمة ..

وإذا بالأوامر العليا تنزل من فوق السماء السابعة لأجل ذلك المهموم المكروب ..

تنتهي فجأة سنين الآهات .. ليأتي عهد الشفاء ..

لماذا تذهب إلى غيره ؟

لماذا تلتجئ إلى سواه ؟

لماذا تثق بكل هؤلاء الموتى الذين يتحرّكون حولك وتنسى الحي الذي لا يموت ..

من الذي لعب عليك وأقنعك أن الشفاء قد يأتي من طريق آخر ؟

كيف ضحكت عليك الحياة بهذه السرعة .. ونسيت ذلك الذي أخرجك من بطن أمّك دون طبيب .. وخلق لك في صدرها رزقاً حسنا .. وعلّمك وأنت أجهل ما تكون كيف تزم شفتيك على صدرها لترضع .. أنسيت الذي خلق الرحمة في قلب تلك الإنسانة لتضمّك .. وتعتني بك ..

أبهذه السرعة نسيته ؟

أهكذا ظننت أنه يمكنك الاستغناء عنه ؟؟

ها هو بالمرض يذكرك بأيامك الأولى ..

بالمرض يقول لك الله : عد إليّ .. فكما خلقتك من عدم فأنا وحدي الذي أرفع عن جسدك السقم ..

قد يكون الدواء أقرب إليك مما تظن ..

فها هو أيوب عليه السلام يُؤمر أن يضرب برجله الأرض " هذا مغتسل بارد وشراب" ..

لقد كان الدواء بالقرب منه .. لم يكن ينقصه إلا مشيئة الله حتى تكتمل أسباب الشفاء .. فلما شاء الله .. علم أيوب مكان الدواء فنجع الدواء بإذنه سبحانه ..

أنت لا تحتاج إلى أن تحجز إلى أمريكا أو أوربا أو الصين .. فدواؤك إن شاء الله قريب .. فقط احجز لقلبك رحلة إلى قارّة الرضا ..

دواؤك فيك وما تشعرُ وداؤك منك وما تبصرُ

إذا رضيت عن الله أرضاك الله ..

المرض من أقسى اختبارات الرضا .. فإذا كانت إجاباتك في هذا الاختبار راضية .. كانت النتيجة مُرضية بإذن الله ..

قل من بين آهاتك " رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيّا " .. قلها بقلبك .. بل روّض قلبك على الرضوخ لمعناها .. بل اغسله بها غسلاً ..

اجعله يعيش الرضا ..

اجعله يتلذذ بالرضا ..

ثم تأمل جسدك .. وسترى أمارات الشفاء تدبّ في نواحيه ..

اجمع يديك واتل اسمه ثم امسح على جسدك يعيد سبحانه بتلك النفثة أشياء كانت على وشك المغادرة ..

اجعل المرض بداية عهد جديد ..

تتعرّف فيه إلى ربّك من خلال اسم الشافي ..

لا تنكر : لقد مرضت كثيرا في حياتك أليس كذلك ؟ من شفاك ؟ لماذا تظن أن هذا المرض بالذات يُعجزه ؟ هذا الظن وهذا الإحساس يستحق العقوبة منه .. وقد يكون مرضك عقوبة لاعتقادك المريض .. انفض المرض عن قلبك أولاً .. ثم التجئ بالشافي إلى الشافي يشفيك ..

كل هؤلاء المرضى في المستشفيات ينتظرون الإذن لهم بالشفاء من الشافي سبحانه ..

ليس هناك آهة إلا ويسمعها ..

ولا ألم إلا ويعلم موضعه ..

ولا زفرة إلا ويرى نيرانها في الفؤاد ..

ثم إذا ما تمّ مراده .. ونزفت عبر آهاتك أنهار الذنوب .. أمر سبحانه العافية أن تعود فإذا بك تمشي في أرض الله وقد اغتسلت من الذنوب ..

لأنّه الرحيم يشفيك

لأنه العليم يشفيك

لأنه الحليم يشفيك

لأنّه القدير يشفيك

لأنّه الله يشفيك

امسح أرقام وأسماء الأطباء ..

انس مواقع المستشفيات ..

ألغ مواعيد العيادة ..

وابن في غرفتك مستشفى جديدة اسمها السجّادة ..

واعقد موعداً مع السجود ..

وسجّل في قلبك اسما واحداً : الشافي ..

في ظلال الصمديّة!

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين .. وبعد ..

فمن أسمائه سبحانه الصمد ..

والصمد اسم كما ترى بالغ الهيبة .. قويّ الحروف .. شامخ المعنى .. قليل الورود .. ذو جلالة خاصّة ..

وها نحن ندلف بخيالاتنا إلى عالَ الصمديّة لنستلهم شيئا من معاني الصمد ..

الصمد هو من تصمد إليه الخلائق .. أي تلجأ إليه .. هذا من أجلّ معاني هذا الاسم .. لذا فسوف نطوف بهذا المعنى ..

الصمد هو المقصود في الرغائب ، المستغاث به عند المصائب ، والمفزوع إليه وقت النوائب ..

جاء ذكره في سورة من أعظم سور المصحف ، ومن أقصرها ، وهي سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن الكريم ..

" قل هو الله أحد * الله الصمد "

وكأن الصمود له سبحانه أهم تجليّات الإخلاص في العبادة .. فمن أكثر من استحضار معنى الإخلاص في عباداته .. أكسب قلبه صفة الرضوخ إلى مولاه والصمود له وعدم الالتجاء إلاّ إليه ..

يحتاج المخلوق إلى نصر فيقول يا الله ..

يحتاج إلى إعانة فيقول يا الله ..

يحتاج إلى حفظ فيقول يا الله ..

يحتاج إلى هداية فيقول يا الله ..

يحتاج إلى لطف فيقول يا الله ..

أحاطك بالاحتياجات لتحيط نفسه بأسمائه وصفاته .. وهذا معنى الصمديّة ..

في كل لحظات حياتك أنت بحاجة إليه ، لذلك من أسمائه الصمد لأنّك ترجع إليه اختياراً وقهراً ..

المزارع إذا تأخر وقت الحصاد .. وقد تعاظمت حاجته للثمر .. وصار الماء شحيحاً .. نظر إلى السماء وقال يا الله ..

ركاب السفينة إذا تلاطمت بهم الأمواج وزعزعت فكرة الموت طمأنينة الحياة في نفوسهم قالوا يا الله ..

إذا أعلن كابتن الطائرة أن عجلاتها رفضت التحرّك ولذلك فسيأخذ جولة على المطار إلى أن تُحل المشكلة .. ينسى ركاب الطائرة كل الشخصيات المهمة .. ولا يتذكرون إلا الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ..

وعيناك على رسّام القلب .. تنظر إلى تلك الخطوط المتعرّجة ومريضك تخفت أنفاسه .. وتتضاءل نبضاته .. وتلك الخطوط تأخذ قليلا قليلا في الهبوط .. لحظتها تنسى اسم الممرضة .. ويتبخّر من رأسك وجه الطبيب وتقول : أرجوك يا الله كن معه ..

جاء شيخ أعرابيّ اسمه الحُصين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فسأله النبي كم تعبد يا حُصين ؟ فقال : سبعة .. ستّة في الأرض وواحد في السماء .. فسأله النبي صلى الله عليه وسلم : من لرهبك ؟ قال الذي في السماء .. قال من لرغبك ؟ قال الذي في السماء .. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم فاترك الذين في الأرض واعبد الذي في السماء .. فأسلم ..

فالذي تصمد إليه عند الرهبة والرغبة هو وحده من يستحق العبادة ..

خلق في نفوس عباده حاجة إلى حبّه سبحانه ..

هناك نوع من الحب المقدّس في قلوب العباد لا يشبعه إلا الانحناء له .. والطواف ببيته .. والوقوف بين يديه .. والقيام من النوم لأجله .. وبذل المهج في سبيله ..

الحياة بكل تجلياتها أصابع تشير إلى السماء .. وتقول لك : الذي تبحث عنه هناك .. في السماء ..

امرأة يخلو بها فاجر في إحدى الخلوات فيراودها عن نفسها ، ولكنّها تأبى ! فيقول حاثّا لها : لا يرانا إلا الكواكب .. فتردّ بشموخ : فأين مكوكبها ؟

أين الله ؟

إنّه قلب صامد إلى الله .. يراقبه .. متيقن من أنّه عليم خبير سميع بصير محيط ..

وصمودك إليه بقلبك تماما كصمود المصلّي إلى شجرة أو عصا ليصلي إليها .. جاعلا منها سترة للصلاة !

هكذا يجب أن يكون القلب .. يوزّع رغباته في كل الاتجاهات لكن الاتجاه الأمامي يجب أن يكون لله فقط ..

ضع يمين قلبك ما شئت ويساره ما شئت .. ولكن أمامه لا تضع إلا مرضاة الله .. إلا مراقبة الله .. إلا حب الله

إذا بحثت عن شيء فلم تجده فدعه .. وابحث عن الله ..

هو الذي جعل ذلك الشيء يضيع لتصمد إليه وتلتجئ .. لتقول يا الله أعد إليّ ضالّتي .. فيعيدها .. فتنشغل بها .. وتنساه ..

تنقطع الأمطار ، وتصبح الدنيا قاحلة على عهد موسى عليه السلام فيخرج هو وقومه وهم آلاف من الرجال والنساء والولدان .. فيرى موسى نملة خرجت رافعة يديها إلى السماء صامدة إلى ربّ السحاب .. فعلم موسى أن هذا الصمود .. وهذا الذل لن يعقبه إلا هطول السماء بماء منهمر فقال لقومه : ارجعوا فقد كُفيتم ..

فعادوا على صوت الرعود .. ورذاذ المطر ..

في طفولتي كنت أسمع دعاء لأحد القرّاء فيهزني : " اللهم أوقفنا مطايانا ببابك.. فلا تطردنا عن جنابك" .. هذا الإيقاف للمطايا بباب الكريم هو معنى الصمد ..

من لحاجاتك غيره ؟

يجب أن تعلم أنّه لو لم يأذن للدواء أن يؤدّي مفعوله في جسدك لما ارتفع عنك ذلك المرض ..

يجب أن توقن أنّه لو لم يصرف تلك السيارة المتهوّرة عنك لكنت الآن في عداد الموتى ..

يجب أن تتأكد أنّه لو لم يحطك برعايته عندما ركبت البحر .. لكنت الآن طعماً لأسماك المحيط ..

ولهذا تصمد إليه لترتاح .. ليهدأ لُهاثك .. لتلين مفاصلك .. لأنّك بدونه تركض وتلهث وتتوتّر ..

أنصت إلى أولئك الذين تعبث بهم سفينة ، أو يرون الموت وهو مقبل عليهم ، وتعصف بهم رياح التقلّبات سوف تسمعهم بجميع أديانهم يلهجون باسمه : يا الله ..

"هو الذي يسيّركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيّبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنّوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين"

جعل في داخلك حاجة لأن تقول اسمه .. هناك أمن يعمّ كيانك إن قلت يا الله .. فإذا لم تقلها اختياراً .. قلتها اضطراراً .. وإن لم تصرخ بها إيماناً .. صرخت بها قهراً ..

عدّل بوصلة قلبك باتّجاهه ثم سر في أي طريق .. وستصل " فأينما تولّوا فثمّ وجه الله"

إذا التجأت لفلان من الناس صباحاً قد يغلق بابه دونك في المساء .

إذا نصرك على زيد قد لا ينصرك على عمرو ..

إذا أعطاك اليوم فسوف يمنعك بالغد ..

أما الله .. فلا

" هو الحي لا إله إلا هو فادعوه ..."

يعطي بالليل والنهار .. ينصرك على الجميع إن كنت مظلوما .. لا يغلق بابه .. يده سحاء الليل والنهار .. أكرم الأكرمين .. لذلك تصمد إليه الخلائق .. فإذا جرّبت أن تصمد إلى غيره في حاجة رجعت خائبا .. ولا بد

أعجبتني مقولة لأبي حامد الغزالي يقول فيها عن اسم الله الأعظم : " فرّغ قلبك من غيره ثم ادعه بأي اسم يجبك"..

وهذا فحوى معنى الصمد .. اجعل في قلبك الله .. ثم قل أي شيء سيكون إلهيّ المسحة .. وربّانيّ الصبغة ..

كل عارض يعرض إنّما هو رسالة تقول لك : لديك رب فالتجئ إليه ..

المرض رسالة لتذلّ له

والفقر برقيّة لتسجد له

والضعف مكالمة تقول لك استجلب القوّة من القويّ ..

الحياة كلّها تصرخ في وجهك : لديك رب .. اصمد إليه ..

يقول رسول الله لطفل في السابعة صار فيما بعد يعرف بعبد الله بن عباس : " احفظ الله يحفظك .. احفظ الله تجده تجاهك" ..

أمامك .. احفظه في نفسك وجوارحك وخطراتك .. سيكون أمامك بحفظه ومعيّته ونصرته .. الصمد لا تهدأ قلوب خلقه حتى تضع زوّاداتها عند عتبة ملكه ..

انظر في أي اتجاه شئت .. ولكن اجعل في قلبك عينين لا تنظران إلاّ إليه..

تحدّث بكل ما تريد .. ولكن اجعل في قلبك لساناً لا ينطق إلا بذكره ..

استمع إلى الجميع .. ولكن اصنع في قلبك سمعاً لا يدرك إلا كلامه ..

امش إلى حيث شئت .. ولكن احفر في قلبك خطوات نهايتها عرش الملك ..

اصمد إليه بقلبك وروحك وتفكيرك وجسدك وإراداتك وأحلامك وأوهامك

إذا أمسكت قلماً فتساءل : هل يرضى سبحانه عن توقيعي على هذه الورقة؟

إذا هممت بكلمة تقولها فتساءل : هل سأقول شيئا يرضيه ؟

إذا وقفت موقفاً تساءل : هل موقفي هذا محبوب عنده أم لا ؟

اصنع ناقوساً وعلّقه في أعلى قلبك دقاته تقول :

ماذا يريد الله ؟ ماذا يريد الله؟ ماذا يريد الله ..

اصمد إليه في كل حين .. وإذا ما استيقظت في نصف الليل تذكره .. خيالاتك سوداء بدون أن تتذكره .. عقلك خراب دون أن يمرّ اسمه على خطراتك .. أحلامك مستنقعات فإذا جاء ذكر الحي الذي لا يموت عليها صارت أنهارا وأشجارا وعصافير شادية ..

إذا علّمت روحك الصمود إليه .. فإنّها مع الزمن تستحي أن تطلبه الدنيا لأنّها ليست الحيّز الذي خلقك له .. كل آمالك أخروية ..

قال الخليفة لابن عمر وهو يطوف حول الكعبة سلني يا ابن عمر .. فنظر إليك بشموخ الصامد لله وقال .. من أمر الدنيا أم الآخرة ؟ فقال أما الآخرة فلله ولكن من شؤون الدنيا .. فقال : لم أسأل الدنيا من يملكها فكيف أسألها من لا يملكها **!!**

الصمود لله يحوّلك إلى عظيم .. مستهتر بملوك التراب ..

الدنيا تخصص يجهله الصامدون لله ..

قال أمير لابن تيمية .. سمعنا أنّك تريد ملكنا يا ابن تيمية **!**

فرفع ابن تيمية رأسه باستهتار وقال : ملكك ؟

والله إن ملكك وملك آبائك وأجدادك لا يساوي عندي جناح بعوضة !

رجل يعرّض وجهه ويعرض مسألته لله آناء الليل .. كيف يذل لقطعة خزف أطراف النهار ؟

اللحظة التي تصمد فيها إليه لأجل حاجتك .. هي نفسها اللحظة التي تصبح حاجتك ملك يمينك ..

لا عبور لأي رغبة إلا من طريق الله .. لا وجود لأي حاجة إلا في ساحة الله .. لا إمكانيّة لحدوث شيء إلا بالله ..

فإنّه وحده الذي لا حول في الوجود ولا قوّة إلا به ..

لا يمكن لخليّة أن تتحرّك ولا لذرة أن تكون ولا لقطرة أن تتبخر ولا لورقة شجر أن تسقط إلا بحوله وقوّته ..

لا يستطيع العالم كلّه أن يمسّك بسوء لم يشئه الله .. ولا يستطيع العالم كله أن يدفع عنك سوءاً قدّره الله ..

إذن فاجعل وجهك إليه .. وألجئ ظهرك إليه .. وفوّض أمرك إليه

فهو الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ..

خفيّ الألطاف!

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وصحبه ومن والاه .. وبعد

فمن أسمائه سبحانه اللطيف ..

وفي اللغة : اللطيف : الذي يوصل إليك أَرَبَكَ في رفق ..

واللطف أصله خفاء المسلك ودقّة المذهب ..

فالله سبحانه " هو المحسن إلى عباده في خفاء وستر من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم أسباب معيشتهم من حيث لا يحتسبون"

فهو ذو لُطف وخفاء ودقّة في إكرامه وإحسانه .. وفي عصمته وهدايته .. وفي تقاديره وتصاريفه ..

فمع بالغ قدرته ، وعظمة علمه ، وبصره بمخلوقاته ، إلا أنّه ذو لطف فيما يحوط به العبد من هداية وإكرام وإحسان .. لا تفجؤك أفضاله بل يسبقها برياح البشرى .. ويهيّئ قلبك لاستقبالها ، ثم إذا نزلت بك الأفضال جعل لها من الأسباب التي تسبقها ما تكون بها ممهّدة الوقوع .. وكأنّها من محض كسب العبد وهي على الحقيقة إكرام بحت من عظيم المنّ والعطاء ..

وتأتي بلطفه عظائم المقادير والتي تستبعد أكثر العقول توسّعا وقوعها .. فيجعلها كائنة .. حاضرة .. كل خيط من ذلك المقدَّر يمسك به قدرٌ من لطفه .. فلا تنتبه إلا _وبقريب من المعجزات_ قد بات بساحتك ! لا تعلم كيف أمكنه أن يحدث ، وتعلم أن حولك وقوّتك أقل من أن تحدثه .. فتنظر إلى السماء وتقول : " الله لطيف بعباده " ..

إذا أراد اللطيف أن ينصرك أمر ما لا يكون سببا في العادة فكان أعظم الأسباب ..

وإذا أراد اللطيف أن يكرمك جعل من لا ترجو الخير منه هو سبب أعظم العطايا التي تنالك ..

وإذا أراد اللطيف أن يصرف عنك السوء جعلك لا ترى السوء ، أو جعل السوء لا يعرف لك طريقاً ، أو جعلكما تلتقيان وتنصرفان عن بعضكما وما مسّك منه شيء ..

وإذا أراد اللطيف أن يعصمك من معصية .. جعلك تبغضها .. أو جعلها صعبة المنال منك .. أو أوحشك منها ، أو جعلك تقدم عليها فيعرض لك عارض يصرفك به عنها ..

وعباد الله يرقبون تلك الألطاف من اللطيف ، ويبصرونها ببصائرهم وكأنّ كل قضاء ينالهم به بصمة لطف يدركونها وحدهم ..

عندما أراد اللطيف أن يُخرج يوسف عليه السلام من السجن .. لم يدكدك جدران السجن ، لم يأمر مَلَكاً أن ينزع الحياة من أجساد الظلمة ، لم يأذن لصاعقة من السماء أن تقتلع القفل الحديدي .. فقط جعل الملِك يرى رؤيا في المنام تكون سبباً خفيّا لطيفاً يستنقذ به يوسف الصدّيق من أصفاد الظلم !

ولما شاء اللطيف أن يعيد موسى عليه السلام إلى أمّه لم يجعل حرباً تقوم .. يتزعّمها ثوّار بني إسرائيل ضد طغيان فرعون يعود بعدها المظلومون إلى سابق عهدهم .. لا ، بل جعل فم موسى لا يستسيغ حليب المرضعات .. بهذا الأمر الخفيّ اللطيف يعود موسى إلى أمّه بعد أن صار فؤادها فارغاً ..

ولما شاء اللطيف أن يخرج رسولنا عليه الصلاة والسلام ومن معه من عذابات شعب بني عامر لم يرسل صيحة تزلزل ظلم قريش .. فقط أرسل الأرَضَة تأكل أطراف وثيقة الظلم وعبارات التحالف الخبيث .. فيصبحون وقد تفككت عُرى الظلم بحشرة لا تكاد ترى ..

لغيرك ما مددت يـــــدا وغيرك لا يفيض ندا

وليس يضيق بابــــــــك بي فكيف ترد من قصـــــدا

وركنك لم يزل صمـــــــــدا فكيف تذود من وردا

ولطفك يا خفيّ الـــــــلطف إن عادي الزمان عـــــدى

إنّه اللطيف سبحانه .. بأيسر الأمور يقدّر أعظم المقادير .. وتتمّ إرادته على ما شاء ، وعبده غير مدرك بأن شيئا ما يحدث ..

تنام فيحبّ أن تقول تصلي بين يديه .. فيرسل ريحا هادئة تحرّك نافذتك .. أو طفلا من أسرتك يمرّ ويحدث ضوضاء بجوار غرفتك ، أو حاجة شديدة في شرب شيء من الماء .. فتستيقظ وتنظر إلى الساعة .. وبعد دقائق تكون واقفاً على السجّادة تناجيه ولا تعلم أنّه هو من أيقظك ..

تقود سيارتك في مرتفعات الجبال ثم فجأة ترى من الضرورة أن توقف سيّارتك جانباً لتتأكد من وجود شيء في درج السيارة (هويّتك أو محفظة نقودك) .. وبعد ثوانٍ ترى أمامك صخرة عظيمة هابطة من أعلى الجبل لو لم تقف لدكدكتك وسيارتك .. فتكمل رحلتك سالماً .. ولا تعلم أنّه هو من أنقذك !

تخطط لمعصيته .. تخرج ليلاً .. تفاصيل الخطّة محكمة ، فجأة تمرّ سيارة من بعيد ، فتشك أنت أن أحدهم يراقبك ، فتنغّص تلك السيارة المارّة فكرة الذنب لديك .. فتبرد إرادتك وتعود إلى بيتك .. ولا تعلم أنّه هو من صرفك بلطفه عن معصيته !

وكم لله من لطفٍ خفـــــــــيّ يدقّ خفاه عن فهم الذكيّ

وكم أمر تساء به صباحــــــــا فتأتيك المسرّة في العشيّ

إذا ضاقت بك الأحوال يوما فثق بالواحد الفرد العليّ

ولا بد للطيف أن يكون عليماً .. فكيف يكرمك ويمنّ عليك ويهديك بلطفٍ من لا يعلم مكامن هذا اللطف ؟ ولا بد أيضاً أن يكون خالقاً .. إذ أن كمال اللطف يقتضي في بعض الأمور إيجاد ما ليس موجوداً وخلقه .. وها هي أسماء الله وصفاته يشير بعضها إلى بعض ، ويقتضي ويستلزم بعضها البعض .. يقول تعالى : " ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير " .. كيف لا يعلم وقد بلغ من علمه أن أخفى عطاءاته فكانت دقيقة الحضور .. هادئة النور .. باهرة الشعور .. كيف لهذا الرب الذي يكرم بخفاء .. ويهدي بخفاء .. ويصرف بخفاء .. ألا يعلم كل هذا اللطف الذي يحدثه سبحانه ؟

يقول الشيخ السعدي :" وهو اللطيف الذي أحاط علمه بالسرائر والخفايا ، وأدرك البواطن والخبايا"

وها هي رؤيا من أعظم رؤى البشرية يراها يوسف عليه السلام وهو في حالة تقول كلّ مؤشّراتها الطبيعية باستحالة تحققها .. يحكي رؤياه فيقول : " إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين" ..

وتأويل الرؤيا أن أباه وأمّه وإخوته الأحد عشر سيسجدون له إكراماً وتوقيراً ..

جميع المؤشّرات لا تدل على تحقق مثل هذه الرؤيا ..

فإخوته يكرهونه فكيف سيسجدون له .. بل بلغ من كرههم أن يخططوا لقتله .. بل إن كرههم دفعهم لإلقائه في البئر ، فهذه المؤشرات تقول باستحالة أن يحدث سجودهم له في يوم ما !

ثم إنّ الأحوال تقلّبت به فصار عبداً في بيت عزيز مصر .. وحال العبودية تلك تقضي أيضاً بتأكيد معنى الاستحالة هذه !

ثم انتقل من كونه عبدا خادما في قصر .. إلى عبد حبيس في سجن .. فبعدت المسافة أكثر بينه وبين تحقق تلك الرؤيا ..

ولكنّ اللطيف سبحانه يقدر الأقدار ، ويصرّف الأمور ، ويخرجه من السجن ، ويجعله في منصب رفيع ، ثم يقدّر القحط على البلاد ، ثم يأتي بإخوته في ثياب الذل .. وما تزال أقدار اللطيف تلتف لتحقق تلك الرؤيا القديمة .. فينبهر يوسف لسجود والديه وإخوته ويقول : " يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقّا .."

وإلا فلولا إرادة ربّه لما تحققت ..

" وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي"

هذا اختصار للطف الذي سيطر على المشهد ثم يضع التوقيع النهائي فيقول :

" إنّ ربي لطيف لما يشاء".. نعم إنّه اللطيف إذا أراد شيئا هيّأ أسبابه بكامل اللطف وتامّ الخفاء .. حتى إنّه ليقع ما يستحيل في العادة أن يقع .. لأنّه الله اللطيف الخبير ..

إذا رأيت الأرض صفراء بلقعاً .. ثم تكوّم السحاب فوقها .. ثم تصافعت الرعود ونزل المطر فاهتزت تلك الأرض واخضرّت فلا تقل إن مثل هذا أمر طبيعي .. وتدبّر : "ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير"

مهما تباعدت أحلامك وصار بينك وبينها مفاوز شاسعة فاللطيف يأتي بها : " يا بني إنها إن تك مثال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير" .. فلا تيأس وربّك لطيف لما يشاء ..

تأمّل حبّة الخردل .. إنّك لا تكاد تراها إن لم تكن محدّقا فيها .. انظر إلى حجمها بالنسبة لكفك .. ثم بالنسبة لحجم غرفة مثلا .. ثم بيت .. ثم قارن حجمها بحيّك .. ثم بمدينتك .. ثم بدولتك .. وبعد ذلك بقارّتك .. ثم بالأرض .. ثم بالسماوات الفسيحة .. ثم ثق : إن أرادها الله فسيأتي بها " إن الله لطيف خبير" ..

فمن بلغ بلطفه أن يأتي بحبة الخردل من متاهات هذا الكون العظيم .. ألا يمكن للطفه أن يقود قدرا إليك _ كل المقدّمات المنظورة لا توصله إليك .. ولا تدلّه عليك _ بلى والله ..

يصل صاحبي في رحلة شاقة متعبة إلى حدود الأردن .. عنده في صباح الغد محاضرات في جامعة مؤتة يجب عليه حضورها ، وفي الحدود وبعد قطعه لمسافة مئة كيلو متر يتذكر أن جواز سفره في بيته ، نسي جوازه ! يتكدّر ويقرر العودة وعدم السفر ذلك الأسبوع ..

في الغد يقرأ في الصحف عن أنّ بعض الطلبة الأردنيين قاموا بأعمال شغب ضد إخوانهم السعوديين في جامعة مؤتة مما أسفر عن جرحى !

اللطيف أنساه الجواز .. حتى لا يرى الدم .. أو حتى لا يصبح الصباح وهو في المستشفى !

ارقب ألطاف اللطيف .. هي ولا شك تترا .. في كل قدر لطف ما .. وفي كل لحظة ألطاف تحوطك من قبل اللطيف الخبير ..

انظر لنفسك لحظة أن تدخل الغرفة في اللحظة التي يكاد طفلك أن يسقط فيها من على السرير وتساءل : لماذا الآن بالذات دخلت الغرفة ؟

تأمّل ذاتك يوم أن تدخل المطبخ لتشرب الماء فإذا بك تسمع أزيز الكهرباء من فيش الغلاية أو الميكرويف .. فتفصله وأدخنة الحريق كانت في بدايتها .. وتساءل : مالذي أدخلك في هذه اللحظة بالذات .. لماذا لم تتأخر خمس دقائق فقط ؟

وبعد هذا الإبحار الهادئ مع هذا الاسم العظيم .. والذي لم نأت إلا على شيء من معناه .. وبقي من خبايا معناه ما أتركه لفهمك وتأمّلك ورجوعك لكتب أهل العلم فيه ..

وبعد هذا الإبحار .. ألا يستحق هذا اللطيف أن تحبّه ؟ أن تتأمّل عطاياه .. أن تزيد في قلبك من ذكره ومراقبته وحبّه ورجائه وخوفه ..

أن تعيش مع هذا الاسم أياما .. تدعوه به .. وترقب ألطافه .. وتفيض عيناك لرؤية خفيّ هداياته وهداياه ..

قل في خشوع :

يا خفيّ الألطاف نجّنا مما نخاف ..

اللهم يا لطيف الطف بنا .. والطف لنا .. وقدّر لنا من ألطافك الرحيمة ما تقوّم به عوج نفوسنا .. وتهدي به ضال قلوبنا .. وتجمّل به شعث حياتنا ..

هذا وصلى الله وسلّم على سيّدنا محمد ..